الشريف المرتضى
حياته ـ ثقافته ـ أدبه ونقده

أحمد محمد المعتوق*

* حصل على الدكتوراه في الأدب والنقد من جامعة بنسلفانيا ـ بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٧ م.
يعمل أستاذاً مساعداً في قسم الدراسات الإسلامية والعربية ـ جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران.

الملخص

هذه الورقة تتضمن دراسة نقدية تحليلية لشخصية الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ) من خلال آثاره ومؤلفاته ومن خلال الواقع التاريخي الذي عاشه أيضاً، تهدف إلى التعرف على العناصر التي اشتركت في تكوين هذه الشخصية، وعلى ما تمتعت به هذه الشخصية من مهارات وقدرات إبداعية، والعوامل التي ساعدت على تبلور وتطور هذه المهارات والقدرات، ثم ما تمخضت عنه هذه المهارات والقدرات من عطاءات ثقافية ونتاجات فكرية وإبداعية فنية متميزة، وما كان لهذه النتاجات ـ ولما يتصل منها بالأدب والنقد بصورة أخص ـ من قيمة ومن دور في تطوير الحركة الفكرية عامة.. وهذه الدراسة تختلف عن الدراسات السابقة التي وضعت حول الشريف المرتضى من حيث المنهج: فهي لا تعتمد الدليل الوثائقي التاريخي فحسب، وإنما تعتمد البحث التحليلي الموضوعي والاستدلال المنطقي الاستقرائي أيضاً، كما أنها تختلف من حيث الاتجاه والهدف: فبينما تسلط الدراسات السابقة على شخصية المرتضى من جانبها الديني أو العقائدي والاجتماعي، تهتم هذه الدراسة بالجوانب الأدبية والفنية والثقافية التي برزت فيها شخصية هذا الرجل، لا بكل ما يتعلق بهذه الجوانب، ولكن بما يمكن أن يظهرها بوضوح ويشير إلى مداها ويبرز آثارها بإيجاز، وما يبرز المرتضى كناقد متميز بصورة أخص، وآمل أن يجد فيها القارىء ما يشكل إضافة للدراسات السابقة النافعة.

تقديم

الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ) عالم وشاعر وأديب، أشاد المؤرخون المسلمون بذكره وبما كان يتمتع به من جلال الشخصية وتعدد المواهب والشهرة وعلو المكانة بين علماء وأدباء عصره، ونص كثير منهم على أنه كان من أئمة المسلمين في الفقه والأصول والتفسير وعلم الكلام، ومن أبرز من نبغ في علوم العربية والنقد والأدب ورواية الشعر وأخبار العرب.. وذكروا العديد من مؤلفاته في هذه المجالات كما نوهوا بديوان شعره وبما احتواه من نتاج ثر. وقد كتب الكثيرون عن المرتضى قديماً وحديثاً، إلا أن معظم ما كتب لم يكن ليتجاوز الحديث عن سيرة حياته وعن أساتذته وتلاميذه ومؤلفاته، أو تتبع الأخبار والآثار التي تثبت علو مكانته الدينية وشهرته في الدفاع والكلام في الأمور العقائدية بما يشبه السرد التاريخي، على أن خير ما كتب عنه يفتقر أيضاً إلى مزيد من الموضوعية والدراسة القائمة على التحليل والفحص الدقيق التي تكشف بعمق ووضوح عن شخصيته بجميع أبعادها المهمة.

على الرغم من كثرة ما تحدث المؤرخون عن شخصية الشريف المرتضى وعن علمه وأدبه فإن هناك جوانب من شخصيته لا تزال غير معروفة، وهناك أعمال له أدبية ونقدية لم تحظ بما هي جديرة به من بروز واهتمام. إن ما تبقى بين أيدينا من مؤلفات هذا الرجل وما لدينا من الحقائق التاريخية التي ارتبطت بحياته كلها في الحقيقة تبعث على مزيد من البحث للكشف عن جوانب شخصيته وتفي بإبراز أبعادها المجهولة.

هذه الورقة تتضمن دراسة نقدية تحليلية لشخصية المرتضى من خلال آثاره ومؤلفاته ومن خلال الواقع التاريخي الذي عاشه، تهدف إلى التعرف على العناصر التي اشتركت في تكوين هذه الشخصية، وعلى ما تميزت به من صفات وتمتعت به من مهارات وقدرات إبداعية، ثم العوامل التي ساعدت على تبلور وتطور هذه المهارات والقدرات، وما تمخضت عنه هذه المهارات والقدرات أيضاً من عطاءات ثقافية ونتاجات فكرية وإبداعية فنية متميزة، وما كان لهذه النتاجات عامة، ولما يتصل منها بالأدب والنقد بصورة خاصة من قيمة ومن دور في تطوير الحركة الفكرية عامة.. وهذه الدراسة تختلف عن الدراسات السابقة التي وضعت حول المرتضى من حيث المنهج: فهي لا تعتمد الدليل الوثائقي التاريخي فحسب وإنما تعتمد البحث التحليلي الموضوعي والاستدلال المنطقي الاستقرائي أيضاً، كما أنها تختلف من حيث الاتجاه والهدف، فبينما سلطت الدراسات السابقة على شخصية المرتضى من جانبها الديني أو العقائدي والاجتماعي تهتم هذه الدراسة بالجانب

الأدبي والفني والثقافي الذي برزت فيه شخصية هذا الرجل، لا بكل ما يتعلق بهذه الجوانب عامة، ولكن بما يمكن أن يظهرها بوضوح ويشير إلى مداها ويبرز آثارها بإيجاز ويعرف بالشريف المرتضى كناقد بصورة أخص.

لقد مهدت للحديث عن الشريف المرتضى بنظرة تاريخية فاحصة للعصر الذي عاشه، لها من الخصوصية مايجعلها بعيدة عن مجرد التقرير السردي، وفيها من الشمول مايمكن أن يعطي للقارىء صورة حية متكاملة للواقع الذي عاشه المرتضى وانصهر فيه وتفاعل معه وتأثر به واستمد منه الكثير من عناصر شخصيته، وبذلك تبرز شخصية المرتضى في إطارها الكامل، ويتضح ارتباطها بهذا الإطار وتناسبها والتحامها معه حينما تسلط الأضواء عليها.

وقد تحدثت عن شخصية المرتضى في جميع مراحل تكوينها وتطورها وفق المنهج التحليلي الاستنتاجي الذي أشرت إليه؛ لأربط بدقة بين هذه الشخصية في حقيقة تكوينها وبين ماتركته من ظلال وخلفته من آثار وأنتجته من أعمال. ولم يكن هذا البحث ليتسع للحديث عن جميع أعمال المرتضى ومؤلفاته فهي كثيرة، وقد أحصتها وتحدثت عن العديد منها الكتابات السابقة التي صدرت عن المرتضى وخاصة الأعمال والمؤلفات المتصلة منها بالموضوعات الدينية والعقائدية؛ لذلك كان التركيز هنا على أهم ما يمكن أن يبرز ويميز ثقافة المرتضى في أعلى مستوياتها. وقد تركز الاهتمام في دراسة شخصية المرتضى الأدبية على الجانب النقدي، لأن هذا الجانب في اعتقادي يمثل الحلقة المفقودة في تراثنا النقدي.

إن أعمال المرتضى ونظرياته النقدية لم تحظ باهتمام الدارسين. ربما لأن شهرته كعالم فقيه وأصولي ومتكلم غطت على شهرته كأديب وناقد قدير، لهذا رأيت ضرورة الكشف عن هذا الجانب المجهول، والتعريف بالمرتضى كناقد له نظرياته ووجهات نظره الخاصة ومنهجه النقدي المتميز. وقد قارنت بعضاً من آرائه النقدية بآراء نفر من أبرز نقاد عصره لأشير إلى أهمية هذه الآراء وإلى جدارتها بدراسات مستقلة تهدف إلى استقصائها وإبرازها وإحلالها في موضعها المناسب من التراث النقدي العربي. وآمل أن أكون قد وفقت إلى تحقيق ما سعيت إليه، وقدمت للقارىء في هذه الدراسة ما يشكل إضافة للدراسات السابقة النافعة.

عصر الشريف المرتضى

الحالة السياسية

عاش الشريف المرتضى في بغداد خلال فترة الحكم البويهي والذي بدأ سيطرته على العراق وبلاد فارس سنة (٣٢٠ هـ/٩٣٢م) واستمر حتى دخول السلاجقة بغداد سنة

(٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م) واستيلائهم على السلطة. وكانت هذه الفترة من فترات الضعف في الخلافة العباسية ومن الفترات الحافلة بالصراع السياسي. فالسلطة العليا كانت للحكام البويهيين بينما كان الخليفة لا يزال يحتفظ بمنصبه الديني التقليدي المحدود النفوذ، وكان مضطراً إلى الخضوع للسلطة البويهية لقوتها وسعة نفوذها. رغم ذلك فقد كان هناك صراع خفي وظاهر أحياناً بينه وبين البويهيين على السيطرة والنفوذ. ونظراً لأهمية العراق من الناحية الدينية والتاريخية والاقتصادية فقد كان الصراع بين أفراد أسرة بني بويه الكبيرة على الاستئثار بالحكم فيه شديداً، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت الدولة البويهية بكامل أجهزتها وسلطتها في صراع مستمر مع الدويلات الإسلامية الأخرى وخاصة مع الدولة الفاطمية في مصر (٢٩٧ ـ ٥٦٣ هـ / ٩٠٩ ـ ١١٧١م)، فقد كان البويهيون يطمعون في السيطرة على مصر وتوسيع دولتهم بينما كانت طموحات الفاطميين إلى الإطاحة بعرش الخلافة في بغداد وبسط النفوذ على ملك البويهيين أقوى وأشد[١].

رافق الصراع السياسي في هذه الفترة نزاع في الحياة الاجتماعية، وكان من أبرز مظاهر هذا النزاع، الخلافات الطائفية والعنصرية أو العرقية والتي تسببت عنها اضطرابات اجتماعية كثيرة[٢]. فمن جانب ترك البويهيون كل طائفة من الطوائف الإسلامية تتمتع بحريتها المذهبية وتمارس عقائدها وطقوسها الخاصة وتدافع عن نفسها[٣]، وقد كان لهذه السياسة أثر سلبي تمثل في حدوث الفتن والنزاعات الشديدة والاعتداءات بين طبقات العوام من عدد من الطوائف[٤] وأثر إيجابي تمثل في المناقشات والمناظرات الفكرية والعقائدية التي شجعت على الحركة العلمية والثقافية في هذه الفترة. ومن جانب آخر كان للأتراك نفوذ قوي قبل مجيء البويهيين إلى الحكم، فكانوا يشاركون الخليفة في السلطة وإدارة شؤون الدولة بل وصلوا إلى حد الاستبداد بهذه السلطة وتقليص نفوذ الخليفة، ثم بدأ نفوذهم يتراجع شيئاً فشيئاً حتى استيلاء البويهيين ـ الذين جاءوا من أصل فارسي ـ على السلطة فكان مجيئهم نهاية لسلطة الأتراك ومبعثاً لوجود بعض الحزازات العنصرية بين الفرس والترك وحدوث الفتن والنزاعات[٥].

وقد تزامنت الخلافات والنزاعات الداخلية المذكورة مع صراعات أخرى؛ فقد كان هناك عداء مستمر ومتأصل بين الدولة العباسية وبين الروم من جهة وبين القرامطة الذين كان مقرهم آنذاك في اليمن والبحرين من جهة أخرى، وكان الجميع يتحينون الفرص لشن هجمات ضد الدولة العباسية وضد البويهيين. إن استيلاء الحكام البويهيين على سلطة الخلافة في العراق ووجود النزاعات والصراعات السياسية بينهم وبين الخلفاء العباسيين، ثم الخلافات بين أمراء بني بويه أنفسهم وما نتج عنها من اضطرابات في جهازهم الإداري، بالإضافة إلى انشغال العامة بالفتن والخلافات الطائفية والعرقية هذه كلها أتاحت الفرصة للروم والقرامطة لشن هجماتهم المعادية؛ إذ شن هؤلاء عدداً من الهجمات خلال هذه

الفترة على نواح عديدة من العراق، وكان لهذه الهجمات أثر كبير في إضعاف الأحوال الاقتصادية[٦] لما كان يرافق هذه الهجمات من نهب واستيلاء وتدمير.

ومما زاد في إضعاف الأحوال الاقتصادية تعارف الحكام في هذه الفترة على مصادرة أموال وممتلكات المبعدين عن المناصب السياسية وفرض الضرائب على الممتلكات والمبيعات، وما كانت عليه حياة الأمراء والوزراء وذوي المناصب العالية والوجهاء من ترف وبذخ إلى حد الإسراف ومن نهم في جمع الأموال وامتلاك العقارات على حساب الطبقات المتوسطة والفقيرة، وبذلك فقد كانت الحياة الاقتصادية في هذه الفترة في صالح الطبقات الأرستقراطية والملتفين حولها أو المنتفعين منها[٧].

الحياة الثقافية

لم تكن للنزاعات السياسية والخلافات الاجتماعية التي حصلت في العراق في هذه الفترة أية آثار سلبية كبيرة على النشاطات الفكرية والثقافية كما يمكن أن يتصور بل كان الأمر على العكس من ذلك، فقد شهدت هذه الفترة حركة علمية واسعة ونشطة، خلفت ذخيرة كبيرة من المؤلفات والأعمال الراقية في كثير من مجالات المعرفة. وكان لنشوء هذه الحركة في الواقع عوامل أساسية باعثة وعوامل أخرى منشطة لديناميكيتها وعاملة على استمراريتها.

أ ـ العوامل المهيئة أو الممهدة

١ ـ بدأت هذه الفترة وقسط كبير من التراث الإغريقي والسرياني والفارسي كان قد نقل إلى العربية فتهيأت للمسلمين ثروة علمية ضخمة قابلة للشرح والدراسة والاستيعاب ثم الإضافة والتهذيب على أساس الرصيد العلمي والثقافي الإسلامي الذي خلفته النشاطات الفكرية السابقة. وقد أدى هذا المزج الثقافي إلى تبلور كثير من الأفكار والنظريات الجديدة، وتهيأت كثير من الأذهان إلى الإبداع والعطاء. وصاحب عمليات النقل والترجمة المشار إليها إنشاء الكثير من المكتبات الخاصة والعامة التي امتلأت بالكتب المؤلفة والمترجمة والمنقولة والمعلق عليها في كثير من أصناف العلوم والآداب والفنون[٨]، ولا شك أن هذه المكتبات قد هيأت لاستمرارية الإبداع والعطاء الثقافي.

٢ ـ إن نشاطات المعتزلة والأشاعرة وكثرة الجدل والمناظرة بين الفقهاء والكلاميين وأصحاب المذاهب والعقائد المختلفة التي حدثت خلال الفترات السابقة كانت قد أخصبت الأذهان وجعلتها أكثر قابلية واستعداداً للعطاء الفكري وتسببت في وجود ثروة علمية وفكرية ضخمة قابلة لتطورات جديدة.

٣ ـ تطور الاتجاه قبل بداية هذه الفترة إلى تنظيم العلوم وتصنيفها والتخصص فيها؛ فقد أصبح لبعضها كالفلسفة وعلم الكلام والتاريخ مناهج مميزة، كما تطور الاتجاه إلى

وضع أصول ومصطلحات كثيرة من العلوم والفنون وإصدار المعاجم والقواميس اللغوية[٩]، ولا شك أن ذلك سهل دراسة كثير من الأعمال الفكرية وعمل على توضيح نصوصها وموادها وبالتالي على توسيع انتشارها والاستفادة منها.

٤ ـ سبق مجيء هذه الفترة حصول بعض التطورات التي أظهرت نوعاً من المرونة في الدراسات العلمية، فقد أجيز مثلاً في أوائل القرن الرابع الهجري للمتخصصين في عمل الحديث رواية الحديث من غير رجاله ومن غير إجازة مكتوبة[١٠] فأصبح بإمكان المتخصصين في هذا الحقل دراسة الكتب الخاصة الموضوعة والأخذ منها، بدلاً من الرحلة إلى مكان بعيد أو قريب للقاء رجال الحديث أنفسهم والأخذ عنهم مباشرة كما كان مألوفاً في السابق. ولا شك أن ذلك زاد من الحماس لدراسة الحديث والاشتغال بالتأليف فيه وفيما يتعلق به من دراسات دينية لتوفير الوقت وقلة المشقة.

وقد كان من المألوف لدى الفقهاء والمفسرين أن يفسر القرآن على ضوء الأحاديث النبوية فقط وسمي ذلك (بالتفسير بالرواية أو الأثر) ثم نشأت فكرة التفسير بالرأي أو (بالدراية) والتي تعطي للمفسر الحرية في استخدام معرفته واجتهاده الشخصي في تفسير آيات القرآن. وقد تطورت هذه الفكرة خلال القرنين الثاني (٨ م) والثالث (٩م). وتبناها المعتزلة وكثير من المفسرين فيما بعد[١١]. هذه النظرية بالطبع زادت من التحمس إلى دراسة القرآن وتفسيره ومن ثم تطوير ما يتعلق بالدراسات القرآنية من دراسات أخرى كاللغة والبلاغة والنحو والأدب.

٥ ـ في مجال الأدب، بعد ظهور كل من أبي تمام (ت ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م) والبحتري (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) حدثت خصومة اشتدت خلال القرن الثالث، وهذه أثارت حركة أدبية شملت اللغة والشعر والنقد والبلاغة والأدب المقارن، وقدكانت حصيلة هذه الخصومة أعمالاً كثيرة هامة سجلها ابن النديم في كتابه الفهرست[١٢]. وهذه الأعمال بلا شك أثرت الثقافة الإسلامية ومهدت لتطويرها وتوسيعها في الفترات التي تلت الفترة التي نحن بصددها. وبهذا فقد كانت الظروف صالحة ـ من نواح عديدة ـ فالأذهان مهيأة للعطاء والإنتاج. والوسائل المغذية متوفرة وباعثة على إنعاش نهضة فكرية جديدة.

ب ـ العوامل المنشطة

١ ـ جرى التقليد في الفترات السابقة على أن يتخذ الخليفة ووزيره بطانة من العلماء والأدباء والشعراء كمصدر للوجاهة والأبهة لبلاط الخليفة أو مجلس الوزير، ولما كان لهؤلاء من نفوذ اجتماعي قوي وقدرة على التأثير في نفوس الرعية وكسب الجماهير والدعاية للخليفة أو وزيره أو الحاكم الذي يقربهم. لقد ظل هذا التقليد متوارثاً ومستمراً في فترة حكم البويهيين وحدث ما يطوره ويجعله أكثر فاعلية في تنشيط الحركة الفكرية، فبعد أن كانت السلطة في السابق في يد الخليفة وحده لا ينافسه

فيها منافس، أصبحت السلطة في هذه الفترة موزعة بينه وبين الحكام البويهيين، وأصبح هناك تنافس على كسب النفوذ والسيطرة بينه وبين هؤلاء الحكام من جهة، ثم بين هؤلاء الحكام أنفسهم وحكام الدويلات الأخرى المنقسمة عن الإمبراطورية الإسلامية السابقة كالدولة الحمدانية في حلب والموصل (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ / ٩٢٩ ـ ١٠٠٣م) والدولة الغزنوية (٣٥١ ـ ٥٨٢ هـ / ٩٦٢ ـ ١١٨٦ م) في أفغانستان والهند من جهة أخرى. وذلك بدوره أدى إلى التنافس على ضم أكبر بطانة من العلماء والأدباء وذوي النفوذ والتأثير، فأصبحت تبذل العطاءات السخية والمناصب السياسية العالية لذوي المعرفة من قبل الحكام المتنافسين حتى بلغ الأمر أن يجعل منهم الوزراء؛ فقد تولى الوزارة في فترة الحكم البويهي في العراق عدد من رجالات العلم والأدب كان منهم محمد بن الحسين المعروف بابن العميد (ت ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م) والصاحب إسماعيل بن عباد (ت ٣٨٤ / ٩٩٤ م)[١٣]. وبذلك أصبحت الثقافة مصدر وجاهة وثراء وسلطان وكان لذلك بالطبع أثر كبير في زيادة احترام العلم والعلماء وفي دفع الكثيرين إلى الانخراط في المؤسسات الفكرية والتحمس لاكتساب المعرفة.

٢ ـ إن كثيراً ممن تولوا منصب الوزارة أو الإمارة أو الحكم في عهد الحكم البويهي كانوا أنفسهم من ذوي الثقافات العالية والاتجاه العلمي الملحوظ؛ فكان من هؤلاء الشعراء والأدباء كعضد الدولة (ت ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م) وتاج الدولة أحمد بن فناخسرو وآخرين ذكرهم عبدالملك الثعالبي في كتابه المشهور يتيمة الدهر وذكر اهتماماتهم الثقافية[١٤]. إن ثقافة هؤلاء المسؤولين واتجاهاتهم العلمية الشخصية لم يكن أثرها مقصوراً على مشاركاتهم في الإنتاج وتشجيع رعاياهم على الاهتمام بالثقافة وإنما كانت تدفعهم أحياناً إلى إنشاء مؤسسات علمية لها دور كبير في تنشيط الحركات الفكرية كالمدارس والمكتبات. فقد أنشأ الصاحب بن عباد أكاديمية ضخمة في بغداد[١٥]. وأنشأ عضد الدولة مكتبة في بغداد أيضاً جمعت كما يقول المقدسي ـ كل ما ألف من الكتب إلى عصره، كما كان له مجلس حافل برجال الفكر والمعرفة تناقش فيه كثير من المسائل والموضوعات في كثير من أصناف العلوم[١٦]، وقد عرف عن كثير من هؤلاء المسؤولين أنهم كانوا يطلبون ممن يحسون فيهم الكفاءات العلمية العالية من أفراد حواشيهم أن يؤلفوا في موضوعات معينة ويكافئوهم مكافآت سخية على هذه المؤلفات[١٧] ولا شك أن هؤلاء المسؤولين هم أقدر من غيرهم على القيام بهذه النشاطات سواء من حيث قدرتهم السلطوية أو من حيث الإمكانية المالية. إضافة إلى ذلك فإن حب هؤلاء المسؤولين للثقافة جعل النتاج الثقافي خير وسيلة للتقرب إليهم. فقد كان الكتّاب يؤلفون الكتب

ويهدونها إليهم، كما فعل أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) حين ألف كتابيه (الإيضاح) و(التكملة) في النحو وأهداهما إلى عضد الدولة [١٨] كما كان الشعراء يتبارون في التقرب إليهم ونيل مكافآتهم بنظم العديد من القصائد، ليس في المدح فقط وإنما في موضوعات شتى[١٩].

٣ ـ أعطيت للطوائف الإسلامية على اختلافها حرية التعبير عن أفكارها وعواطفها كما أشير إلى ذلك من قبل. وقد كان لذلك دور هام في تنشيط الحركة الفكرية. فقد أتيحت الفرصة لجميع هذه الطوائف والفرق المتفرعة عنها للإعلان عن نفسها وإثبات وجودها بكل ما أوتيت من وسائل الدفاع الفكري والثقافي. وكان من أبرز هذه الوسائل المناظرات والمناقشات العلمية، وتأليف الكتب والرسائل في المسائل العقائدية والكلامية[٢٠]. وكان للشيعة وخاصة فرقة الشيعة الإمامية منهم دور كبير في هذه النشاطات. فقد نبغ ثلاثة من علماء هذه الفرقة في هذه الفترة كان لهم دور مهم في الدفاع عن فرقتهم وإنعاشها وإبراز شخصيتها وتوضيح وتمييز عقائدها، وهؤلاء هم: محمد بن النعمان العكيري المعروف بـ (المفيد) أو (ابن المعلم) (ت ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م)، ثم تلميذه الشريف المرتضى علي بن الحسين، أما الثالث فهو محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م) تلميذ المرتضى. فتاريخ هؤلاء الثلاثة حافل بالنشاط العلمي سيما في مجال المناظرة والتأليف. فقد ألف المفيد كما يقول الطوسي مائتي مؤلف (٢٠٠) في كثير من العلوم الإسلامية[٢١]، وكان كما يقول اليافعي «يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة والعظمة في الدولة البويهية[٢٢] وكان له مجلس نظر يحضره كافة العلماء. أما الطوسي فيطلق عليه الشيعة الإمامية إلى يومنا هذا (شيخ الطائفة) لما كان له من دور كبير في إنعاش هذه الطائفة وحيويتها الفكرية. وإضافة إلى مؤلفاته العقائدية والكلامية الكثيرة فقد كان له كما يقول المؤرخون كرسي الكلام في بغداد ولم يعط إلا للمتميز من أعلامها[٢٣].

ولم يقتصر تأثير المناظرات الطائفية على تطوير الدراسات الكلامية والعقائدية والفقهية وإنما شمل الدراسات القرآنية وما يرتبط بها من دراسات لغوية وبلاغية وأدبية أيضاً، فكانت كل فرقة من الفرق الإسلامية تحاول دعم معتقداتها بالرجوع إلى القرآن الكريم والاستدلال بآياته لأنه الكتاب الذي يحظى بتقديس كل هذه الفرق. وهذا بالطبع يقتضي أن يكرس علماء كل فرقة جهودهم للتمعن في دراسته وتفسير آياته وتحليلها لانتزاع ما يمكن أن يتخذ دليلاً مقنعاً يؤيد أفكارها أو يدحض أفكار خصومها. وبما أن التفسير بالرأي ـ الذي أشير إليه فيما سبق ـ أصبح متعارفاً عليه مألوفاً في الأوساط العلمية فقد أضحى المجال واسعاً لطرح تفسيرات متعددة للكثير من آيات القرآن، ونتيجة لكل ذلك فقد ازداد الباعث للانشغال بتفسير القرآن والدراسات القرآنية وما يتبعها من دراسات متعلقة. وحدث

ما يطور هذه الدراسات ويزيد الاهتمام بها أكثر فأكثر وبالتالي يزيد الإنتاج فيها. فقد كان رعايا الدولة البويهية من غيرالمسلمين يتمتعون بمثل ما يتمتع به المسلمون من الحرية العقائدية والفكرية[٢٤]. مما جعل الفرصة متاحة لهم لأن يعبروا عن آرائهم ومواقفهم تجاه العقائد الإسلامية وتجاه القرآن ومسألة الإعجاز فيه مما كان يثير علماء المسلمين ويحثهم على الاستمرار في بحث قضية إعجاز القرآن بغية الدفاع عن كتابهم المقدس، وكان للمعتزلة دور مهم في إثارة هذه القضية وتطوير البحث فيها[٢٥]. وكان حصيلة الاهتمام بهذه القضية كما هو معروف عدد كبير من المؤلفات والرسائل، تناولت كثيراً من القضايا النقدية والبلاغية والأدبية بالإضافة إلى المسائل العقائدية[٢٦].

الحركة النقدية

شاركت عوامل عديدة في تنشيط وتقدم النقد في هذه الفترة، وكان تطور الاتجاه إلى بحث مسألة إعجاز القرآن من أهم هذه العوامل. إذ إن البحث في هذه المسألة كان يتطلب دراسة أساليب النظم في القرآن وبيان ما تتميز به هذه الأساليب من خصائص فنية وبلاغية ثم المقارنة بينها وبين أساليب الكتابة العربية الراقية لبيان ما ينفرد به أو يتفوق فيه القرآن من صفات وخصائص بلاغية وفنية تجعله أرقى من أساليب الكتابة الأخرى. ولا شك أن هذه العملية كانت تتطلب فحصاً دقيقاً ودراسة نقدية نظرية وتطبيقية واسعة. وأوضح مثال على ذلك ما قام به محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٤م) في كتابه إعجاز القرآن، حيث درس أساليب النثر العربي ثم أساليب الشعر الجاهلي وأساليب كثير من الشعراء المعاصرين له دراسة نقدية وتحليلية دقيقة في محاولة لإثبات تميز وتفوق طرق النظم والتعبير في القرآن على كل الأساليب الكتابية الراقية المألوفة، وقد صحب ذلك دراسة توضيحية لكثير من المصطلحات النقدية والبلاغية[٢٧].

وظهرت في هذه الفترة كتب نقدية كان لها أثرها الكبير في تطوير حيوية النشاطات النقدية فقد كان لكتاب البديع الذي ألفه عبدالله بن المعتز (ت ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م) وحدد فيه خصائص البديع وأصوله وفنونه واصطلاحاته ودرسها دراسة تطبيقية أثر كبير في توضيح مبادىء الشعر الحديث آنذاك. كان هذا الكتاب كما يقول محمد مندور «مبدأ حركة النقد في أواخر القرن الثالث وخلال القرن الرابع كله» إذ فطن النقاد إلى منهجه في تمييز وتحليل خصائص البديع عن غيرها من الطرق البلاغية وإلى اتجاهه الجديد في الشعر وكان لهذا أثر بعيد في مؤلفاتهم وطريقة تناولهم للنقد على نحو منهجي[٢٨].

وكان لكتاب نقد الشعر الذي ألفه قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م) متأثراً بنظريات أرسطو في الشعر والنقد وبالفلسفة اليونانية وأساليبها الجدلية والبلاغية أثر بارز في تطور الحركة النقدية في هذه الفترة أيضاً، فقد شارك هذا الكتاب في تطعيم النقد العربي بما استفاده مؤلفه من عناصر إيجابية من التراث النقدي اليوناني ومن ثم في بلورة أفكار

ونظريات جديدة وفي خلق الدوافع لإضافات هامة[٢٩].

ولقد ظهر في هذه الفترة شاعر كبير هو أبو الطيب المتنبي (ت ٣٥٤ هـ / ٩٦٥م) فأحدث خصومة عنيفة حوله وحول شعره على غرار الخصومة التي أحدثها ظهور كل من أبي تمام ونظيره البحتري في الفترة السابقة، وذلك لما استحدثه من أساليب شعرية جديدة لاقت شعبية كبيرة وأثارت حفائظ الأدباء المنافسين له على الشهرة، وحفائظ عدد من الأدباء والنقاد التقليديين، ودفعتهم لمناقشتها أو الحديث عنها؛ إذ أصبحت أشعاره مادة خصبة للدراسة والنقد والمقارنة بغية الكشف عن المحاسن أو المساوىء في هذه الأشعار[٣٠] مما أدى إلى استحداث وتطوير مناهج وأساليب ومشاكل نقدية بارزة كان أهمها مشكلة السرقات الشعرية، وقضية عمود الشعر، ومسألة اللفظ والمعنى، وموضوعات أخرى مثل: الشعر والفلسفة، الشعر والدين، الفحولة في الشعر، الشعر والخطابة أسس النقد وأصوله... وقد أصبحت هذه القضايا والموضوعات بدورها مواد خصبة للتأليف والمناقشة حتى إلى ما بعد هذه الفترة[٣١].

إن ما يمكن استنتاجه من الفقرات الماضية هو أن الفترة التي عاش خلالها الشريف المرتضى كانت في الواقع تشهد نهضة علمية واسعة، على الرغم مما كانت تشهده من نزاعات سياسية وخلافات دينية وطائفية وما كان يتبع ذلك من اضطرابات في الوضع الاجتماعي والاقتصادي. وإن هذه النهضة قامت على أسس فكرية قوية أو أرضية خصبة قابلة لقيام تطورات جديدة مثمرة. وقد توفرت البواعث والظروف اللازمة لخلق هذه التطورات. فالجو السياسي والاجتماعي كان مهيئاً وباعثاً على قيام العديد من النشاطات الفكرية والأدبية، ووسائل التغذية الثقافية من مجالس علم ومكتبات ومؤسسات تعليمية كانت متوفرة. كانت حصيلة هذه النهضة عدداً ضخماً من المؤلفات القيمة في العديد من جوانب المعرفة. إن كتب التاريخ العلمي والأدبي التي اهتمت بهذه الفترة مثل: كتاب الفهرست لابن النديم ويتيمة الدهر للثعالبي ومعجم الأدباء لياقوت الحموي زاخرة بأسماء رجال العلم والأدب الذين نبغوا وشاركوا بمؤلفاتهم ونشاطاتهم المختلفة في خلق الازدهار الفكري والثقافي. وهذا يدل على أن آثار هذه النهضة قد انعكست على كثير من فئات وأفراد المجتمع الإسلامي آنذاك ومنهم الشريف المرتضى.

الشريف المرتضى

شخصيته

هو علي بن الحسين بن موسى الموسوي العلوي شقيق الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م). وقد لقب بالشريف المرتضى، كما لقب بالسيد المرتضى وبعلم الهدى.

ولد المرتضى في بغداد في سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م من أسرة أرستقراطية شريفة،

تمتعت بمنزلة اجتماعية ودينية وثقافية عالية[٣٢]، فبالإضافة إلى انتساب هذه الأسرة من جهة الأب والأم إلى علي بن أبي طالب خليفة المسلمين الرابع والإمام الأول لطائفة الشيعة، فقد ورثت الزعامة الدينية والاجتماعية لفرقة العلويين أو الطالبيين والتي كانت تشكل إحدى الطبقات الشريفة الكبيرة في المجتمع العراقي آنذاك. كما تولى عدد من أفرادها بعض المناصب الدينية والإدارية الهامة. تولى الحسين بن موسى (ت ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م) والد المرتضى نقابة العلويين كما تولى ولاية الحج وولاية مظالم المسلمين[٣٣]، وتولى جد المرتضى الثاني لأمه محمد بن الحسن الملقب بالناصر الكبير أو الأطروش (ت ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م) هذه المناصب كلها وكان عالماً وأديباً وشاعراً معروفاً[٣٤]. وكان لهذه المناصب بالإضافة إلى شرف النسب العلوي دور كبير في نفوذ هذه الأسرة وفرض احترامها الكبير حتى في الدوائر السياسية؛ فوالد المرتضى كان على صلة وثيقة بدار الخلافة من جهة وبالسلطة البويهية من جهة أخرى، بل كان السفير والوسيط بينهما في كثير من الأمور. وقد بلغ من احترام أفراد السلطات العليا له أن لقبه بهاء الدولة البويهي (ت ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م) بالطاهر الأوحد ذي المناقب[٣٥].

نشأ المرتضى في أحضان هذه الأسرة النبيلة المحترمة في بحبوحة من العيش متأثراً بمحيطه الأسري، في نبل خلقه واعتزازه وطموحه إلى المعالي ووراثة الزعامة العلوية كما تؤكد ذلك قصائد شعره المبكرة[٣٦]. وقد حرصت أسرته على تعليمه منذ صغره؛ أخذته أمه وهو صغير السن ـ كما ينص مؤرخو سيرة حياته ـ إلى فقيه الإمامية آنذاك محمد بن النعمان المعروف بالمفيد (ت ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م) ليتعلم الفقه، كما أنه بدأ دراسته للغة والأدب والبلاغة على يد عبدالعزيز بن عمر المعروف بابن نباتة السعدي (ت ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م) وهو صبي لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر، هذا وتشير عبارات المؤرخين وتعليقاتهم إلى أن المرتضى كان ذكياً ومثابراً ومحباً للعلم منذ حداثة سنه[٣٧]، وبذلك فإن الظروف الطبيعية والأسرية كانت مهيأة لتكوين شخصية المرتضى بشكل يتناسب مع مقام أسرته الرفيع.

حين عين والد المرتضى نقيباً للطالبيين وفق مرسوم خاص صادر عن الخليفة سنة (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) عين المرتضى هو وأخوه الرضي نائبين عن أبيهما[٣٨] وفق نفس المرسوم، وكان ذلك بداية لظهور المرتضى كشخصية بارزة في أوساط المجتمع العراقي. وقد هيأ له هذا المنصب بالإضافة إلى ماكانت تتمتع به أسرته من مكانة عالية وما كان يتمتع به هو من مواهب شخصية وثقافة مبكرة فرصة الاحتكاك بعدد من أفراد الطبقات العليا من المجتمع وطبقات كبار المثقفين، فتوثقت العلاقة بينه وبين كل من الخليفة الطائع (ت ٣٨١ هـ / ٩٩١ م) والخليفة القادر (ت ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م) وعدد من أمراء بني بويه ـ كما ينص بعض المؤرخين وتؤكد بعض قصائد ديوانه[٣٩]. كما أنه كان على صلة وثيقة وحميمة مع أبي

إسحاق الصابي (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) الكاتب والشاعر المشهور[٤٠].

لا شك أن كلاً من المحيط الأسري الخاص والمحيط الاجتماعي الذي عاش فيه المرتضى كان باعثاً له على الطموح ومشجعاً على الاتجاه الحثيث إلى الثقافة، كما أن نسبه ومقامه الاجتماعي وصفاته الشخصية كلها كانت مصدر وجاهة واحترام من قبل المجتمع بفئاته الرئيسية المختلفة. إن علاقة المرتضى بالخلفاء وغيرهم من وجهاء السنة وبالبويهيين وغيرهم من وجهاء الشيعة وبأمثال الصابي تدل على أنه استطاع أن يتعايش ويوفق في علاقاته الاجتماعية بدبلوماسية فائقة بين هذه الفئات المختلفة في كثير من المسائل العقائدية دون تحيز أو تعصب ظاهر متعنت لفئة ضد أخرى وبذلك استطاع أن يكسب احترام هذه الطوائف كلها.

في سنة (٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م) وبعد وفاة أخيه الرضي تولى المرتضى جميع ما كان لأبيه وأخيه من مناصب ومهام دينية وإدارية وسياسية وأصبح بمقتضى مرسوم صادر من الخليفة القادر بالله نقيباً عاماً للعلويين ومسؤولاً عن ولاية الحج وولاية المظالم[٤١]، ولا شك أن لتعيين المرتضى في هذه المناصب دلالة ظاهرة على ما بلغه من مكانة اجتماعية وعلمية وعلى ما أصبح يتمتع به من قدرات شخصية متميزة، كما كان له الأثر الكبير في زيادة نفوذه الاجتماعي والسياسي في العراق وفي بغداد بصورة أخص.

إن النقابة العامة تعتبر بمثابة منصب ديني وقيادي رفيع، يتولى فيه النقيب تمثيل أفراد طائفته سياسياً ويقوم بإدارتهم والحكم بينهم والدفاع عن حقوقهم وعن أنسابهم، ولذلك فإنه يشترط فيمن يختار لهذا المنصب ـ كما يقول الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية أن يكون مجتهداً، ليصح حكمه وينفذ قضاؤه، وأن يكون خبيراً بالأنساب، وأن يكون أجلّ طائفته بيتاً وأكثرهم فضلاً وأجزلهم رأيا، تجتمع فيه شروط السياسة والرياسة ليسرع الناس إلى طاعته وتستقيم الأمور بسياسته[٤٢]. أما ولاية الحج فهي أيضاً منصب سياسي وديني وإداري، يتولى صاحبه مهمة إقامة الحج وتسييره ورعاية الحجيج وتوجيههم وحل مشاكلهم. ولذلك يشترط فيمن يكون في هذا المنصب أن يكون بمنزلة الإمام الشرعي والزعيم المجتهد[٤٣]. وبالنسبة لولاية المظالم فهي ولاية تشريعية وتنفيذية، لها سلطات قضائية عديدة ويشترط فيمن يتولاها أن يكون جليل القدر عظيم الهيبة تجتمع فيه ـ كما يقول الماوردي أيضاً سطوة الحياة وثبت القضاة[٤٤]. وهذا يصور ويوضح ما كان للمرتضى من منزلة علمية عالية ومن مكانة اجتماعية كبيرة وما كان يحظى به من احترام بالغ من قبل أفراد السلطات العليا.

إن كثيراً من الحوادث التاريخية تدل على أن المرتضى كان يدعى سواء من قبل الخليفة أو من قبل الحاكم البويهي لحضور المناسبات السياسية الهامة، كالبيعة لخليفة جديد، أو التولية لحاكم معين، أو استقبال وفد سياسي على مستوى عال، أو للتشاور في بعض القضايا السياسية

والاجتماعية، وكان يدون تاريخ حضوره ويعتد به[٤٥]. وقد بلغ من نفوذه واحترامه أن داره كانت حرماً يلجأ إليها الحاكم البويهي ووزراؤه حين يثور عليهم الجند أو يقعون في فتنة مع رعاياهم[٤٦]. وفي ذلك دلالة واضحة على ما كان يلقى من احترام من قبل العامة أيضاً. ويروي المؤرخون أن الملك بهاء الدولة البويهي أصدر كتاباً خاصاً يقضي بتلقيب المرتضى بـ (ذي المجدين)[٤٧] اعترافاً بشرف نسبه ومجد الزعامة العلوية.

على الرغم من كل ما سبق ذكره فإن حياة المرتضى لم تكن تخلو من مشاكل اجتماعية وحوادث محزنة كان سببها في الغالب التعنت الطائفي بين أوساط العوام وما يصحب ذلك أحياناً من فتن واعتداءات متبادلة يكون ضحيتها زعماء الطوائف أنفسهم أحياناً[٤٨].

ثقافته

يجمع عدد كبير من المؤرخين والأدباء والعلماء الذين عاصروا المرتضى أو جاءوا من بعده على أن المرتضى كان من أبرز علماء عصره في الفقه والأصول وعلم الكلام والعقائد والتفسير والبلاغة، كما كان أديباً وشاعراً بارزاً، وناقداً بصيراً، وراوية ثقة للشعر وأخبار العرب[٤٩]. ويشيد بعضهم بمنزلته العلمية أكثر فيعتبره إمام عصره في علوم الشريعة واللغة والأدب في العراق. يقول ابن بسام الشنتريني معاصر المرتضى «وكان هذا الشريف إمام أئمة العراق بين الاختلاف والاتفاق، إليه فزع علماؤها وعنه أخذ عظماؤها، صاحب مدارسها وجماع شاردها وآنسها، ممن سارت أخباره وعرفت أشعاره»[٥٠]. أما الثعالبي فيقول: «وقد انتهت الرياسة اليوم ببغداد إلى المرتضى في المجد والشرف والعلم والأدب والفضل والكرم»[٥١] بينما يصادق ابن خلكان على أن المرتضى «مجمع على فضله وأنه توحد في علوم كثيرة مثل علم الكلام والفقه وأصوله والأدب والنحو والشعر ومعاني الشعر واللغة وغير ذلك»[٥٢]. ويؤيد تفوقه في الحقول العلمية والأدبية المذكورة عدد من كبار المؤرخين والمفكرين حتى من أولئك الذين يخاصمونه ويتحاملون عليه لاختلافهم معه في بعض المسائل العقائدية[٥٣]. أما عند الشيعة وخاصة فرقة الإمامية منهم فالمرتضى يعتبر من أعاظم المراجع في الفقه والأصول، كما يعتبر أول من بسط فقه الإمامية وفسر غوامضه، وأنه من أوائل وأكابر من ناظر في حقوقهم ودافع عنهم وعن عقائدهم وميّز بينهم وبين باقي فرق الشيعة، كالزيدية والاسماعيلية وما تفرع عنها[٥٤] وهذا الاعتقاد لا زال مصادقاً عليه لدى علمائهم ومفكريهم حتى عصرنا الحاضر[٥٥].

إن سيرة حياة المرتضى العلمية وواقع ظروفه الشخصية والاجتماعية والثقافية في كل مراحلها ومستوياتها ـ كلها تدعم الأقوال السابقة التي تشيد بتفوقه العلمي، وترشحه لمكانة علمية عالية، فقد نشأ المرتضى كما تبين ـ في فترة كانت فيها الثقافة والمدنية في أوج ازدهارها، وفي محيط اجتماعي مشجع على الاهتمام بالثقافة والعلم، ومحيط أسري باعث على الطموح والتطلع إلى معالي الأمور. وفي ظل أسرة اهتمت بتعليمه منذ

السنين المبكرة في حياته، كما أن الفرصة أتيحت له لأن يتتلمذ على مجموعة من خيرة أساتذة وعلماء عصره. فقد تتلمذ مثلاً في الفقه والأصول على (المفيد)، وكان المفيد آنذاك أبرز مراجع الشيعة في هذين الحقلين في عصره ومن كبار المتكلمين وكان المرتضى تلميذه وصديقه القريب. كما أنه تتلمذ في اللغة والأدب والبلاغة والصرف على ابن نباتة وكان شاعراً وأديباً مرموقاً[٥٦]. وتتلمذ في الشعر وروايته على محمد بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) صاحب كتاب الموشح، وهو كاتب وناقد وراوية للشعر، روى عنه واستفاد منه عدد كبير من أدباء عصره. وقد عرف باهتمامه البالغ بالعلم والأدب وخدمة المعرفة وطلابها[٥٧].

وقد توثقت علاقة المرتضى في مراحل مختلفة من حياته بعدد كبير من العلماء وذوي الثقافة وعشاق الأدب ورجاله البارزين أمثال الصابي الذي سبق ذكره، والحسين بن علي المعروف بالوزير المغربي (ت ٤١٨ هـ / ١٠٢٧م)، والقاضي علي بن الحسن التنوخي (ت ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م) بالإضافة إلى أخيه الشريف الرضي. وقد تمكن بفضل روحه العلمية المرنة وموقفه العقائدي المعتدل بأن يكون علاقات حميمة مع عدد من علماء المعتزلة الذين عرفوا بنشاطاتهم الفكرية المثابرة، أمثال قاضي القضاة عبدالجبار المعتزلي (ت ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م) إمام المعتزلة آنذاك[٥٨]. إن للعلاقة بأمثال هؤلاء العلماء دلالتين بارزتين: **الأولى**: أن المرتضى لا بد أنه كان على مستوى علمي رفيع يؤهله لأن يكون صديقاً وقريناً لهؤلاء العلماء. **الثانية**: لا بد أن يكون قد استفاد من هذه العلاقة في تطوير ثقافته ونزعته العلمية لما كانت تحفل به مجالس هؤلاء العلماء وخاصة المعتزلة والإمامية منهم من مناقشات ونشاطات فكرية مختلفة الموضوعات والمناسبات والأهداف تشجع على المنافسة والتحدي والنشاط الفكري، وبذلك تزيد من الاهتمام بالعلم والتكريس من أجله، وقد ظهر أثر ذلك واضحاً فعلاً في حياة المرتضى:

يقول ابن حجر العسقلاني إن المرتضى «كان لا يؤثر على العلم شيئاً... وأنه جعل داره للعلم وقدرها للمناظرة»[٥٩]، ويقال إنه كان له مجلس خاص يتردد عليه كثير من رجال الفكر والعلم والأدب أمثال الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م) وإمام النحو واللغة المشهور عثمان بن جني (ت ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م)[٦٠]، وقد بلغ من اهتمامه الثقافي والعلمي أنه كان يتعهد لطلابه وملازمي مدرسته بمكافآت مالية جيدة، بل إنه كان يتعهد لبعضهم بما يكفي معيشتهم من المال وإنه أوقف قرية زراعية من أملاكه الخاصة على قراطيس الفقهاء[٦١]. ومن دلائل اهتمامه بالثقافة وحرصه على التعليم الذاتي ولعه باقتناء الكتب وقراءتها ما يروى عن صديقه القاضي التنوخي من أن المرتضى كان يملك مكتبة ضخمة ضمت ثمانين ألف مجلد[٦٢]. ولا شك أن هذه المكتبة كانت مرجعاً ثرياً له ولطلاب مدرسته الخاصة.

إن جعل المرتضى من داره مدرسة خاصة وإنفاقه عليها وعلى طلابها لا شك شجع عدداً من طلاب العلم وخاصة المعوزين منهم إلى الانضمام إلى هذه المدرسة والحرص على حضور درسه. فقد ذكر المؤرخون عدداً كبيراً ممن تتلمذوا على المرتضى وواظبوا على حضور محاضراته(٦٣). من ناحية أخرى تدل كثرة هؤلاء التلاميذ والملازمين في حضور مجالسه ومحاضراته على شهرته في مجال التدريس وعلى سعة علمه وكثرة الفائدة التي تجنى من حضور دروسه أو محاضراته. خصوصاً وأن طائفة ممن تتلمذوا عليه أو لازموه عرفوا باهتماماتهم ونشاطاتهم الفكرية وأن منهم من أصبح فيما بعد من علماء وفقهاء ومتكلمي أو أدباء المسلمين البارزين أمثال محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧م)، وحمزة بن عبدالعزيز الديلمي الملقب بسلار (ت ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م)، والقاضي عبدالعزيز بن البزاج (ت ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م)، والقاضي محمد بن علي الكراجكي (٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م)، وغيرهم. هؤلاء العلماء ـ وأغلبهم من الإمامية ـ اعترفوا في بعض أعمالهم بما يدينون به للمرتضى في مجال العلم، وأشار بعضهم باعتزاز إلى قوة ارتباطه بالمرتضى كأستاذ وموجه وزعيم روحي(٦٤).

إن تصريحات بعض المؤرخين والقصص والوقائع التاريخية التي يروونها خلال أحاديثهم عن سيرة المرتضى تفيد بأن المرتضى درس وحاضر في موضوعات عديدة من العلوم الإسلامية كالفقه والأصول والتفسير، إضافة إلى موضوعات أخرى كاللغة وعلم الفلك. كما تفيد أنه كان على اطلاع واسع بالفوارق العقائدية ومسائل الخلاف بين المذاهب الإسلامية المختلفة؛ فابن الجوزي على سبيل المثال يصرح بأن المرتضى «كان يناظر عنده في كل المذاهب»(٦٥). لا شك أن كثرة تلاميذه ومستمعي محاضراته وملازمي دروسه، ثم تعدد الموضوعات التي يدرس فيها كلها تدل دلالة ظاهرة على اتساع خبراته في مجال التعليم وسعة اطلاعه كما تدل على استمرارية نشاطاته الفكرية.

لقد كان لتولي المرتضى نقابة العلويين العامة والمهمات الدينية والإدارية والسياسية الأخرى التي سبقت الإشارة إليها دلالة هامة على علو مكانته العلمية، كما كان لها أثرها الكبير في تطور هذه المكانة وتقدمها وهذه الدلالات:

١ ـ لقد سبق وأن ذكر أن مما يفترض في تولي هذه المهام الاجتهاد في مجال العلوم الشرعية والإلمام الواسع بالعلوم الإسلامية. كما وأن النقابة بصورة خاصة تتطلب معرفة واسعة بأنساب العرب وأنساب العلويين على الأخص بغية حماية أنسابهم مما لا يليق بشرفهم الاختلاط به. ولا شك أن معرفة الأنساب جزء هام من التاريخ العربي. ولا شك أيضاً أن اختيار المرتضى لتولي هذه المناصب يدل على مؤهلاته العالية في هذه المعارف المشترطة.

٢ ـ إن هذه المهام والمناصب التي تولاها المرتضى فرضت عليه الممارسة المستمرة

للنشاطات العلمية وخاصة في مجال الحقول والموضوعات الشرعية والقضائية. إن مسؤولية النقابة بصورة أخص جعلت منه زعيماً روحياً وممثلاً سياسياً ومسؤولاً إدارياً يتولى إدارة وتنظيم شؤون طائفته كما يتولى الدفاع عنها وعن عقائدها ويرد على خصومها من أبناء الطوائف الأخرى في عصر اشتدت فيه الخلافات والنزاعات الطائفية والعقائدية ويمكن القول بأن هذه المهمة قد شحذت مواهب المرتضى وزادت من نشاطاته الفكرية وجعلت منه متكلماً قوي النفوذ والتأثير لما كانت تقتضيه من مناقشات ومناظرات مستمرة ومن مثابرة على الاستعداد التام لمثل هذه النشاطات. نقل عن أبي إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م) أستاذ وفقيه المدرسة النظامية أنه قال: «كان الشريف المرتضى ثابت الجأش، ينطق بلسان المعرفة ويردد الكلمة المسددة فتمرق مروق السهم من الرمية، وأنه: إذا شرع الناس الكلام رأيته له جانب منه وللناس جانب»[٦٦].

تبين مما تقدم أن المصادر التي استقى منها المرتضى ثقافته كانت ثرية ومتعددة، والأعمال الحياتية التي مارسها كلها كانت باعثة ومشجعة على نشاطات فكرية فعالة بينما كانت صفاته الطبيعية ومواهبه الشخصية والظروف العائلية والاجتماعية عموماً مهيئة وباعثة على إنتاج خصب ومرشحة لمكانة ثقافية وفكرية عالية.

مؤلفاته

ذكر المؤرخون للمرتضى عدداً كبيراً من المؤلفات بلغت ثمانين مؤلفاً، شملت بالإضافة إلى ديوانه الضخم العديد من الكتب والرسائل في موضوعات علمية إسلامية وأدبية مختلفة[٦٧]، وقد وضع محمد بن محمد البصروي (ت ٣٤٤ هـ / ١٠٥١ م) أحد تلامذة المرتضى فهرساً خاصاً ضم عدداً كبيراً من هذه المؤلفات، وصودق على هذا الفهرست من قبل المرتضى نفسه في سنة (٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م)[٦٨]، ومعنى ذلك أن هذا الفهرست يضم أعمال المرتضى حتى هذا التاريخ فقط، غير أن المرتضى أشار في بعض مؤلفاته الموجودة بين أيدينا إلى مؤلفات أخرى ربما صدرت بعد التاريخ المذكور[٦٩].

ورغم كثرة المؤلفات التي تنسب إلى المرتضى فإن عدداً كبيراً منها لم يكتشف أو يظهر للوجود بعد. كما أن عدداً منها بقي إلى عهد قريب مخطوطاً.

لقد غطت شهرة المرتضى في مجال العلوم الإسلامية وعلم العقائد والكلام على شهرته في مجال الأدب والنقد، وربما كان ذلك سبباً في أن الاهتمام بطبع ونشر مؤلفاته في المجالات الأولى كان أكثر وأقدم منه في المجالات الأخرى. فقد طبع ونشر مثلاً كتابه (الانتصار) في الفقه سنة (١٢٧٥ هـ / ١٨٥٨م) ضمن مجموعة فقهية، وطبع مرة أخرى مستقلاً سنة (١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م) كما طبع ونشر كتابه (الشافي) في العقائد والكلام سنة ١٨٨٤ م بينما لم يطبع وينشر ديوانه الضخم إلا في سنة ١٩٥٨م ولم تطبع

رسالته في شرح (القصيدة المذهبة) للشاعر إسماعيل بن محمد الحميري (ت ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م) إلا في سنة ١٩٧٠م، ولا يزال كتابه الأدبي النقدي (الشهاب) من دون تحقيق. ربما كان من أسباب ذلك كله الاهتمام الكبير بكتبه المتعلقة بالموضوعات الشرعية والعقائدية على حساب أعماله في المجالات الأخرى ـ على أساس أنها مصادر مرتبطة بمسائل عقائدية وكلامية مهمة ولقد لعب هذا دوراً هاماً في توجيه أنظار الباحثين والمحققين المحدثين إلى أعماله المتعلقة بالعلوم والموضوعات الدينية والاهتمام بها أكثر من غيرها مما يتعلق بالمجالات الثقافية الأخرى. وعلى هذا الأساس يصبح التعريف بكل أعمال المرتضى ذات القيمة العلمية وخاصة أعماله التي لم يتسن لها أن تبرز على نحو مماثل للأعمال الأخرى أمراً ضرورياً. فبذلك يتضح مدى مصداقية أقوال المؤرخين فيه وإشاداتهم بأعماله وخبراته الواسعة بصورة أكثر. ولكن موضوع البحث هنا ـ رغم ذلك ـ يفرض الاختصار والاقتصار على الإشارة إلى أهم ما يظهر سعة علمه وتعدد خبراته ويوضح مشاركاته الأدبية والنقدية الجديرة بالاهتمام والدراسة. والمؤلفات التالية مع التعريف الموجز للموضوعات التي تبحثها أو تناقشها يمكن أن تكون كافية لتحقيق هذا الهدف.

١ ـ **الانتصار**: وهو كتاب يناقش المرتضى فيه ما يزيد على (٣١١) مسألة فقهية وفق منهج استدلالي مقارن دقيق، مبيناً ما انفرد فيه الإمامية من وجهات نظر في المسائل وما اتفقوا فيه مع الطوائف الإسلامية الأخرى[٧٠]. ويظهر من مقدمة هذا الكتاب أن المرتضى ألفه تلبية لرغبة أحد أفراد السلطات العليا في عصره[٧١]، وهذا الكتاب في الواقع هو إحدى محاولات المرتضى للدفاع عن الإمامية ضد الاتهامات الموجهة لهم أو الشبهات التي ألصقت بهم من قبل بعض أفراد الطوائف الأخرى مثل اتهامهم بالشذوذ ومخالفة إجماع المسلمين في مسائلهم وأحكامهم الفقهية... فهو هنا يتناول توضيح ما غمض أو اشتبه في فهمه من وجهات نظر الإمامية في هذه المسائل والتدليل على صحتها عقلاً ونقلاً من الكتاب والسنة، وتمييزها عما اختلط أو التبس بها من وجهات نظر بعض الفرق الشيعية الأخرى، ويحوي هذا الكتاب بالإضافة إلى ذلك كثيراً من الملاحظات اللغوية والنحوية والبلاغية، كما يدل على سعة اطلاع المرتضى وإحاطته بآراء ونظريات عدد كبير من فقهاء المسلمين[٧٢]. ويمتاز أسلوب المرتضى المتبع في هذا الكتاب بالدقة والصراحة وبساطة التعبير، وأخيراً فإن هذا الكتاب في الحقيقة من أوائل الكتب التي اهتمت بالمسائل الخلافية في الفقه الإسلامي وقارنت بينها.

٢ ـ **الذريعة إلى أصول الشريعة**[٧٣]: وهو كتاب يتكون من عدة فصول يبحث ويناقش المرتضى فيها عدداً كبيراً من الموضوعات والمسائل المتعلقة بأصول الفقه الإسلامي. ويفرق بينها وبين ما يعتبر من أصول العقائد. وهذا الكتاب في الواقع من أبرز وأهم

الكتب أو المؤلفات التي توضح وجهات نظر الإمامية في الموضوع وتبين ما يختلفون فيه عن بقية الطوائف والمذاهب الإسلامية كما تؤرخ استقلالية أصول الفقه الإمامي ولا يزال هذا الكتاب يدرس في بعض المراكز العلمية الشيعية ويلقى اهتماماً بالغاً من فقهاء الشيعة(٧٤).

٣ ـ **الشافي في الإمامة**(٧٥): ألف المرتضى هذا الكتاب في نقد كتاب (المغني من الحجاج) للقاضي عبدالجبار بن أحمد الهمذاني المعتزلي (٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م) الذي يناقش فيه مؤلفه موضوعين هامين هما موضوع الخلافة وموضوع الإمامة، فهذان الموضوعان هما من أسس الخلاف الهامة بين السنة والشيعة منذ الفترات الأولى من التاريخ الإسلامي حتى اليوم، ويناقش المرتضى في كتابه الشافي هذين الموضوعين وفق منهج نقدي استدلالي تحليلي دقيق في محاولة لإثبات شرعية الإمامة في قيادة المسلمين بعد النبي وامتداد صلاحيتها ولزوم وجودها، وهنا يدافع المؤلف عن طائفته ضد ما نسب إليها من مقالات في تقديس الإمام أو تقديمه على النبي أو نسبة العلم المطلق بالغيب إليه وغير ذلك. ويتضمن هذا الكتاب تمييزاً دقيقاً بين الزيدية والإمامية والمعتزلة(٧٦). كما يحتوي على مناقشة قضايا عقائدية كثيرة يعرض خلالها لآراء مجموعة كبيرة من علماء المعتزلة والإمامية وغيرهم، وبالإضافة إلى ذلك فهو يحتوي على عدد كبير من الملاحظات التاريخية والأدبية والبلاغية واللغوية، فالمرتضى كثيراً ما يدعم آراءه واستنتاجاته بالآيات القرآنية والنصوص الشعرية ويشرح ويفسر مفردات هذه الآيات والنصوص ويناقشها من الناحية اللغوية أو البلاغية. وخلاصة القول فإن هذا الكتاب بالإضافة إلى دلالته على تعدد مهارات وخبرات وثقافات المرتضى فهو يعتبر مدخلاً هاماً لمعرفة الأسس الهامة لعقائد الشيعة الإمامية، كما يصور طبيعة المناقشات والمناظرات العقائدية والكلامية التي كانت من أبرز النشاطات الفكرية في عصر المرتضى(٧٧).

٤ ـ **غرر الفوائد ودرر القلائد**: أو ما يسمى أيضاً (أمالي المرتضى): وهو كتاب كبير يتكون من مجلدين في طبعاته الأخيرة(٧٨). ويحتوي على مجموعة من المحاضرات أو الدروس أملاها المرتضى على تلامذته أو مستمعيه في مجالس مختلفة وأزمان متعاقبة. وهي تتضمن مناقشة وبحث موضوعات مختلفة في التفسير والحديث والتاريخ والأنساب وعلم الكلام واللغة والنحو والصرف والشعر والنقد والبلاغة والأدب.

في هذا الكتاب يتبع المرتضى طريقة التفسير بالرأي ويستند غالباً في تعليل ودعم آرائه أو استنتاجاته إلى مأثور الكلام الفصيح البليغ وخاصة الشعر، وكثيراً ما يحلل ويوضح بعض النصوص الشعرية التي يستشهد بها ويفسر مفرداتها اللغوية، بغية الوصول إلى أهدافه في المقارنة أو توضيح ما يفسره من آيات القرآن ونصوص الحديث، ويستطرد

أحياناً فيتعرض إلى مقارنة بعض النصوص الشعرية التي يستشهد بها وإلى نقدها وتحليلها أو ذكر ما يماثلها أو يناسبها في المعنى أو الأسلوب أو الموضوع، وفي أثناء نقده لهذه النصوص يناقش آراء بعض النقاد فيها، وبذلك فإن هذا الكتاب يحوي مجموعة كبيرة من النصوص الشعرية من نتاج أغلب الشعراء المعروفين حتى عصره، كما يحوي عدداً من النظريات والمصطلحات النقدية والبلاغية المتعلقة بأساليب الكتابة الفنية وخصوصاً بالشعر وخصائصه ولغته، والشاعر وأدواته ومؤهلاته وما يتميز به عن غيره وما إلى ذلك من مسائل وموضوعات[٧٩]. هذا إضافة إلى الملاحظات اللغوية والنحوية الكثيرة.

ويناقش المرتضى في هذا الكتاب أحياناً بعض الموضوعات التاريخية والكلامية سواء بصورة مستقلة أو بصورة مرتبطة بموضوعات قرآنية أو دينية أو أدبية أخرى. فهو يناقش مثلاً قضية القضاء والقدر، كما يتحدث عن أخبار المعمرين ومشاهير العرب ويترجم لعدد كبير من الشعراء، مستعرضاً أو ناقداً أثناء ذلك عدداً من الآراء في هذه الموضوعات[٨٠].

ويعتمد المرتضى فيما ينقله أو يناقشه من نصوص شعرية أو أحاديث نبوية أو أخبار وقصص تاريخية أو آراء في اللغة والنقد والبلاغة على مجموعة كبيرة من المصادر المعتبرة. أبرزها كتب أستاذه المرزباني، وطبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي وديوان الحماسة لأبي تمام، والبيان والتبيين للجاحظ وكتاب الموازنة للآمدي وكتاب النوادر في اللغة لسعيد بن أوس الأنصاري (ت ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م) وغريب الحديث لعبدالله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م). وخلاصة القول فإن كتاب الأمالي في الواقع يشكل موسوعة هامة في العلوم الإسلامية والأدب والشعر واللغة والتاريخ والنقد النظري والتطبيقي. ويدل على عمق وسعة ثقافة المرتضى في هذه المجالات.

٥ ـ **الديوان:** ذكر بعض مؤرخي سيرة حياة المرتضى بأن المرتضى كان كثير النظم سريع البديهة فيه، وأن له ديوان شعر يضم قرابة العشرين ألف بيت[٨١]. إلا أن الديوان الموجود لدينا والذي صدر في ثلاثة أجزاء كبيرة نسبياً، يضم قرابة (١٤) ألف بيت[٨٢]، وهذا يعني أن هناك جزءاً من المجموعة الشعرية المنسوبة إليه لا زال مفقوداً.

والقصائد والمقطوعات الشعرية التي يضمها ديوانه الموجود تدل على أنها حصيلة فترة طويلة من حياته، فبعض هذه القصائد أو المقطوعات نظمها المرتضى في سن مبكرة، كالقصيدة التي يذكر فيها الطائع بالله (ت ٣٨١ هـ / ٩٩١م)، والقصيدة التي رثى فيها أبا إسحاق الصابي (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤م)[٨٣]، كما أن هناك قصائد نظمها في مناسبات متعددة خلال زمن امتد حتى سنة ٤٣٥ هـ، أي قبل وفاته بسنة، فقد نظم في هذه السنة عدداً من القصائد كان منها قصيدة في رثاء جلال الدولة البويهي. وقصيدة طويلة بمناسبة عاشوراء[٨٤]. من خلال ما سبق ذكره يمكن القول أن ديوانه

الضخم هو حصيلة مالا يقل عن (٥٥) عاماً من عمره، وهذه لا شك فترة طويلة تدل على خبرة واسعة وممارسة طويلة في نظم الشعر.

لقد نظم المرتضى قصائد ديوانه في موضوعات وأغراض متعددة منها الوصف والفخر والغزل والمدح والرثاء والإخوانيات، وغيرها من الأغراض والموضوعات التي كانت معروفة مألوفة في عصره. ولئن كان مدح بعض الخلفاء والأمراء والحكام وتهنئاتهم أو تعزياتهم أو رثائهم من أبرز الموضوعات في ديوانه إلا أنه ليس هناك دلائل على أنه تكسب بشعره، وربما كان في حياته المنعمة وثرائه الموروث الذي يصفه المؤرخون ما يجعله في غنى عن ذلك.

٦ ـ **الشهاب في الشيب والشباب**[٨٥]: يحتوي هذا الكتاب على مجموعة كبيرة من النصوص الشعرية المختارة تزيد على الألف بيت. وأغلب هذه النصوص من شعره ثم من شعر أخيه الشريف الرضي ومن أشعار أبي تمام والبحتري. وأهمية هذا الكتاب تكمن في أنه أولاً: يحتوي على مجموعة من النصوص الشعرية يجمع بينها موضوع واحد وهو وصف الشيب والشباب وهذا يمثل اتجاهاً جديداً في الأدب العربي. وثانياً: إن هذا الكتاب يعتبر كمصدر هام يحتاج إليه في تحقيق دواوين الشعراء الذين وردت بعض أشعارهم فيه. وثالثاً: إن هذا الكتاب يوضح منهج المرتضى في النقد والموازنة والمقارنة بين النصوص الشعرية. فالمرتضى كثيراً ما يقارن ويوازن بين النصوص الشعرية المتفقة في المعاني أو الأساليب والأغراض ويعلق عليها، كما أنه يناقش أو يعلق على بعض آراء الآمدي فيما يتعلق ببعض أشعار كل من أبي تمام والبحتري. ويطرح أثناء ذلك نظريات وآراء هامة في الشعر ونقده كما سيتبين فيما بعد[٨٦].

٧ ـ **طيف الخيال**[٨٧]: وهذا الكتاب يحوي مجموعة كبيرة من النصوص الشعرية المختارة في وصف الطيف لعدد من الشعراء من بينهم هو وأخوه الرضي وأبو تمام والبحتري، وقد ألف المرتضى هذا الكتاب بعد تأليفه لكتاب (الشهاب) كما يتضح ذلك في مقدمته لكتاب (طيف الخيال)[٨٨]، والمنهج المتبع في هذا الكتاب هو نفس المنهج المتبع في (الشهاب): فالمرتضى يوازن ويقارن بين بعض النصوص التي يذكرها كما يعلق على آراء ومواقف وملاحظات الآمدي المتعلقة ببعض أشعار أبي تمام والبحتري، بأسلوب موضوعي نقدي متميز[٨٩] ولذلك فإن لهذا الكتاب في الواقع نفس الأهمية التي تعزى إلى كتاب الشهاب، وربما كان هذا الكتاب أكثر أهمية لاحتوائه على مجموعة أكبر وأهم من آراء وملاحظات المرتضى النقدية. والكتابان يمكن أن يكونا مادة صالحة لوضع دراسة مقارنة لآراء كل من المرتضى والآمدي في الموضوعات النقدية ذات العلاقة.

وللمرتضى أعمال خاصة بالأدب والشعر واللغة ظهر بعضها وطبع وبعضها لا زال لم يكشف بعد، فمن جملة ما وصلنا من هذه الأعمال شرح «القصيدة المذهبة» وهي قصيدة للشاعر إسماعيل بن محمد الحميري (ت ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م) في مدح الخليفة علي بن أبي طالب، وقد شرحها المرتضى وفسر مفرداتها ووضح معانيها مستطرداً لقضايا أدبية وتاريخية متعددة(٩٠).

هذه هي أهم وأبرز أعمال المرتضى التي وصلت إلينا وهي بلا شك تثبت أو توضح ما يراد توضيحه، وهو أن المرتضى كان متنوع الثقافة واسع المعرفة، إنه شاعر مكثر مجيد واسع الأفق، وناقد وأديب ولغوي واسع الاطلاع، كما أنه عالم فقيه متكلم أصولي ومفسر. ولا شك أنه من خلال دراسات دقيقة عميقة واسعة وشاملة لهذه النشاطات والأعمال التي أشير إليها تتضح مكانته العلمية العالية وتتبين أهمية آرائه ونظرياته المتعلقة بهذه الموضوعات بصورة أكثر، أما أعمال المرتضى الموجودة الأخرى فهي كثيرة وجديرة بالدراسة والاهتمام، ليس من قبل طلاب العلوم الإسلامية فقط وإنما من قبل طلاب الأدب واللغة أيضاً. إن للمرتضى عدداً كبيراً من الرسائل والكتب في موضوعات مختلفة كالفقه والأصول والعقائد وفي التفسير والأدب والشعر، وقد طبع الكثير من هذه الأعمال(٩١)، غير أن كثيراً مما طبع منها أو من الأعمال السابقة الذكر لا زال من دون تحقيق.

المرتضى الناقد

لقد أشير خلال التعريف بأهم مؤلفات المرتضى إلى أن لهذا الرجل مشاركات في نقد الشعر وشرحه وتفسيره بالإضافة إلى نظمه، وأن من أبرز أعماله التي تضمنت هذه المشاركات هي كتبه الثلاثة (الأمالي) و(الشهاب) و(طيف الخيال)، والحقيقة أن قراءة عميقة متفحصة شاملة لهذه الكتب تظهر أهمية المرتضى كناقد بصير خبير؛ فقد ناقش المؤلف في هذه الكتب عدداً كبيراً من الموضوعات والقضايا الهامة مناقشة تدل على اهتمامه بنقد الشعر وتتبعه لأعمال النقاد البارزين، رغم انشغاله أو تكريس معظم جهوده للقضايا الدينية والعقائدية. وربما كان هذا الاهتمام ناتجاً عن طموحه كأديب للاطلاع على كل ما يتصل بالأدب أو ينسب إليه، أو عن تأثره بالمحيط الأدبي الغالب في سيطرته أو شعبيته في الحياة العامة آنذاك. وليس ببعيد أيضاً أن يكون ذلك ناتجاً عن كون المرتضى شاعراً وأخاً لشاعر شهير كالشريف الرضي يهمه أن يتابع ما يقال عن الشعر والشعراء ويعلق على ما يقال أو يناقشه بحسب ما تواتيه الفرصة. خاصة وإن عمله كمتكلم وزعيم مدافع يجعل من مناقشة آراء الآخرين وتفنيدها أو تأييدها والدفاع عنها أمراً اعتيادياً.

إن الكتب الثلاثة المذكورة في الواقع لا تحوي كل ماشارك به المرتضى في مجال النقد، فهناك كتب أخرى نسبت إليه ولا زالت لم تكتشف، يرجح أن تكون أعمالاً نقدية أو أنها على الأقل تحوي مشاركات نقدية هامة. مثل كتاب (البرق) أو ما يسمى أحياناً

(المرموق في أوصاف البروق) الذي يرجح أن يكون على غرار (الشهاب) و(طيف الخيال) في المحتوى والمنهج ما عدا اختلاف موضوع المجموعة الشعرية فيه. أو مثل كتاب (تتبع الأبيات التي تكلم عليها ابن جني في إثبات المعاني للمتنبي)[٩٢] وهو كتاب يغلب على الظن أن يكون المرتضى قد علق فيه على أبيات للمتنبي أو ناقش بعض تعليقات ابن جني عليها مبديا ملاحظاته، ولا يبعد أن تكون هذه التعليقات والملاحظات كثيرة ومصحوبة بمناقشات واسعة؛ فالخصومة حول المتنبي كانت شديدة، والجدل والنقاش حوله وحول شعره كان كثيراً ومعقداً آنذاك.. وعلى الرغم من غياب هذه الكتب فأعمال المرتضى الثلاثة المتوفرة التي سبق ذكرها كافية للدلالة على كفاءاته وخبراته النقدية وعلى أهمية نظرياته وجدارتها بالفحص والدراسة والمقارنة.

تطرق المرتضى في الكتب المذكورة إلى موضوعات نقدية لم تبحث إلا في كتب النقد المنهجي الذي تطور خلال القرنين الرابع والخامس مثل: قضية اللفظ والمعنى، وقضية الصدق والكذب في الشعر، وقضية الموازنة بين الشعراء والمقارنة بين الأشباه والنظائر الشعرية، وأسس النقد وما يشترط في الناقد، والمنهج النقدي وما يتطلبه من شروط، وفكرة الفصل بين النص الشعري وشخصية قائله. وفكرة الزمان أو القدم والحداثة[٩٣]، كما تحدث عن أصول القصيدة العربية، وعن الشعر: لغته، أدواته، عيوبه، خصائصه الفنية والبلاغية، وعن عملية الخلق والبناء الشعري، وعمليتي الإيحاء والتخييل، وعن الشاعر وما يختلف به عن غيره في أحاسيسه ونظراته وحالاته النفسية[٩٤]. وتطرق إلى الحديث عن عملية النظم والعبارة الشعرية[٩٥]، وعن العلاقة بين الشعر والعقل، وضمن الحديث عن البلاغة والخصائص البلاغية للنظم والصياغة الفنية عرف البلاغة وناقش كلاً من الاختصار، الحذف، الإيجاز، الإشارة، الكناية، التشبيه، المبالغة، المجاز، الاستعارة، التخييل وغير ذلك من المفاهيم البلاغية والنقدية[٩٦].

وقد خص المرتضى قضية السرقات الشعرية وما ارتبط بها من موضوعات بشيء من الاهتمام، فتحدث عن طبيعة السرقة الشعرية وعن حكمها وعن السرقة غير المقصودة، وعلق على كثير مما نسب إلى السرقة من شعر كل من أبي تمام والبحتري كما تطرق إلى موضوعات متعلقة بها مثل: الأصالة الشعرية، الابتكار، المعاني المشتركة، توارد الخواطر، فكرة السبق إلى المعنى، مستخدماً مجموعة من المصطلحات النقدية والبلاغية التي تتعلق بالقضية مثل: ابتداع، ابتداء، أخذ، اختراع، استيفاء، استبداء، إلمام، إنشاء، تركيب، سبق، سرق، مزج، ملاحظة، نظر وما إلى ذلك.. واستخدام المرتضى هذه المصطلحات لا يدل فقط على سعة معرفته وإحاطته بما كان يدور حول القضية من مناقشات وتطرح فيها من آراء، وإنما يشير أيضاً إلى أن هذا الرجل قد سبق بعض معاصريه من مشاهير النقاد في إدراك مدلولات أو مفاهيم هذه المصطلحات وفي استخدامها بشكل عملي في نقد الشعر. هذا

وقد كانت له أفكاره الأصيلة ونظريته الخاصة المتميزة في القضية وفي كثير من الموضوعات ذات الصلة[٩٧].

إن غالب الموضوعات التي ناقشها أو تطرق إليها المرتضى قد لاقت اهتماماً كبيراً من قبل النقاد البارزين أمثال العسكري والآمدي والقاضي الجرجاني. والمرتضى وإن لم يبحث هذه الموضوعات كلها بالتفصيل كما بحثها هؤلاء النقاد إلا أن ملاحظاته وتعليقاته عليها أو مناقشاته وتحليلاته لبعضها لا شك تتضمن وجهات نظر أصيلة وقيمة. فعلى الرغم من أن المرتضى يناقش أثناء تعليقاته على هذه الموضوعات آراء بعض النقاد أمثال الجاحظ، وبشر بن المعتمر، ومحمد بن يحيى الصولي، وأحمد بن عبدالله بن عمار والآمدي[٩٨]، إلا أنه لا يبدو متأثراً بآراء أي من هؤلاء النقاد. فهو يناقش أو يعلق أو ينقد باستقلال وصراحة وموضوعية وبشكل يبدو فيه مسيطراً على مادته ومحيطاً بموضوعه. وإن كانت تعليقاته في الغالب تبدو عفوية أو عرضية؛ فبعضها يتميز بالدقة وعمق التحليل وأصالة المنهج في المناقشة والبعد عن الانطباعية أو العمومية.

فالمرتضى مثلاً يذكر في كتابه الأمالي ضمن ما اعتبره الآمدي أخطاء في شعر البحتري تشبيهاً لذنب فرس بالرداء الطويل زعم الآمدي أنه تشبيه معيب، لأنه مبالغ فيه أو لا يتفق مع الحقيقة. وهنا ينتقد المرتضى الآمدي ويعارضه في الحكم، ولكنه لا يرفض رأيه رفضاً عشوائياً، ولا يطلق حكمه عاماً انطباعياً كما يفعل بعض النقاد التقليديين أمثال ابن سلام، وإنما يناقش الموضوع بشكل تدريجي دقيق ويحلل ويعلل على نحو ما يفعل الجرجاني وغيره من ذوي المناهج النقدية المتطورة، فيذكر التعليلات التي يستند عليها الآمدي في تخطئته لتشبيه البحتري كلها، ثم يتحدث عن لغة الشعر ويقارنها بلغة الكلام العادي ولغة الفلسفة، ليبين أن الشعر وتشبيهاته لا يشترط فيها مطابقة الواقع ومجاراة المنطق، كما يشترط في لغة الكلام أو لغة الفلسفة، وينتقل بعد ذلك إلى خطوة أخرى أخص؛ فيناقش التشبيه ويحلله ثم يتحدث عن المبالغة في التشبيه ودورها وطبيعتها في لغة الشعر وأهميتها. ويدعم آراءه بأمثلة عديدة يثبت بها جمال المبالغة أو الغلو في التشبيه في موقعه المناسب، كل ذلك ليدلل على أن الآمدي كان خاطئاً في حكمه وأنه لم يلتفت إلى هذا الخطأ وأن المبالغة في تشبيه البحتري هي سر جودة البيت الذي وردت فيه[٩٩]. وفي الوقت الذي يدلل فيه المرتضى بهذه المناقشة على حذقه وفطنته وعلى سعة اطلاعه وإدراكه التام لطبيعة الشعر وطبيعة لغته وعلى أصالته واعتداده بنفسه، فإنه يبرهن أيضاً على منهجه المتطور في النقد والتحليل والمقارنة.

الشريف المرتضى والآمدي

من الأمور الملاحظة بشكل بارز في أعمال المرتضى النقدية اهتمامه بآراء الحسن ابن بشر الآمدي (ت ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م) وبكتابه الموازنة بصورة أخص، إذ يبدو أن

المرتضى قد قرأ هذا الكتاب قراءة نقدية متأنية دقيقة، ويظهر ذلك في تعليقاته على مواقف الآمدي في هذا الكتاب ومناقشاته لكثير من آرائه.

إن المرتضى لا يقتبس من الآمدي من كتاب الموازنة ويعلق على أقواله تعليقاً هامشياً كما يفعل مع معظم رواته ومن يقتبس منهم أو يستشهد بأقوالهم من الأدباء والنقاد، وإنما يقتبس منه ثم يحلل أو يناقش ما يقتبسه بشكل دقيق ومفصل أحياناً، ويعلق على أقواله ومواقفه متتبعاً أخطاءه وهفواته وأحكامه الانطباعية الغالية أو المجانبة للصواب في رأيه بالتصحيح والرد والنقض.

ومن الملاحظ أن المرتضى لا يورد آراء الآمدي ويعلق عليها ويبدي وجهات نظره فيها وفي المسائل المتعلقة بها في الغالب إلا في مواضع الاستشهاد بأبيات لأبي تمام أو البحتري[١٠٠]، والواقع أن أكثر المناسبات أو الأسباب التي دفعت المرتضى إلى مناقشة الموضوعات المذكورة أعلاه وغيرها ومن ثم طرح نظرياته وآرائه فيها هي تعليقات الآمدي على أشعار كل من أبي تمام والبحتري، حتى لكأنه يناقش أو يدرس كتاب الموازنة، وهذا يبدو واضحاً بصورة أكثر في كتابي (الشهاب) و(طيف الخيال) مما يجعل هذين الكتابين بالإضافة إلى ما يوجد في كتاب الأمالي من التعليقات المتفرقة مادة أساسية صالحة لوضع مقارنة بين آراء كل من المرتضى والآمدي في الموضوعات المتعلقة لإبراز مدى تأثر المرتضى بآراء الآمدي ومدى ما ابتكره الأول وما تميز به وما أسهم به في تطوير النقد العربي.

قد توحي مناقشة المرتضى للآمدي والتعليق على آرائه في كتابه الموازنة عامة بميل المرتضى لمذهب أبي تمام أو بالانتصار له ليس ضد نده البحتري وإنما ضد موازنة الآمدي التي تميل إلى ترجيح كفة البحتري، إلا أن هذه التعليقات في مجملها تدل أيضاً على اهتمام المرتضى بكتاب الموازنة وبالآمدي كناقد له مكانته المرموقة في عصره واهتمامه بشعر كل من أبي تمام والبحتري ومتابعته لما يدور حولهما من نقاش وما يطرح فيهما من آراء. والواقع أننا مدينون بصورة خاصة للآمدي في معرفتنا بالشريف المرتضى كناقد وفي اطلاعنا على أهم آرائه النقدية لأن المرتضى قد أدلى بمعظم هذه الآراء ـ كما سبقت الإشارة ـ خلال تعقيباته وتعليقاته على آراء الآمدي وتفسيراته وشروحه لأبيات كل من أبي تمام والبحتري وبعض الشعراء الآخرين، وبذلك كان الآمدي بمواقفه ووجهات نظره التي طرحها في كتابه الموازنة حافزاً رئيساً للمرتضى في مناقشته لعدد من القضايا النقدية[١٠١].

إن المرتضى لا يتناول موضوعاته النقدية من الناحية النظرية فقط وإنما يحاول أن يطبق عملياً ما يوضحه أو يقترحه نظرياً، فهو على سبيل المثال يشترط أن يكون الناقد موضوعياً منصفاً في حكمه وموقفه، ويطبق هذا الشرط عملياً، فلا يمالي ولا يجامل ولا يتحيز في نقده، وعندما يعلق على آراء الآمدي يطبق ما اشترطه فيخطّىء الآمدي وينتقده نقداً شديداً أحياناً، بينما يعترف بصواب رأيه ويثني عليه أحياناً أخرى[١٠٢] بحيث لا يمكن

لقارىء أن يقول إنه منحاز إلى الآمدي أو إنه متعصب ضده[١٠٣]. ومن هذا المنطلق فهو يتهم الآمدي بالتعصب للبحتري ضد أبي تمام ويعيب عليه هذا التعصب. والمثال الآتي يشير إلى هذا الاتهام كما يبين جانباً من أسلوب المرتضى في نقد الآمدي وطريقته في التعليق عليه:

يورد المرتضى في معرض استشهاداته بما قيل في الطيف الأبيات الثلاثة التالية لأبي تمام:

زار الخيال لها، لا، بل أزاركه　　فكر إذا نام فكر الخلق لم ينم

ظبي تقنصته لما نصبت له　　من آخر الليل أشراكا من الحلم

ثم اغتدى وبنا من ذكره سقم　　باق وإن كان معسولا من السقم[١٠٤]

ويذكر أن الآمدي لم يعجبه قول أبي تمام «زار الخيال لها، لا، بل أزاركه» وقال عنه إنه ليس بجيد، لأنه إذا أزاره الفكر فقد زار، فما وجه الاستدراك؟! فكأنه أراد أن الخيال لم يعتمد الزيارة، وإنما أزاره الفكر. ومثله: قام زيد لا بل أقمته، وكأن قائل هذا يريد: ما اعتمد زيد القيام بل أقمته أنا. ويعقب المرتضى على تعليق الآمدي هذا بقوله:

«إن الآمدي عاب هذا البيت ثم اعتذر لقائله بما هو العذر الصحيح الذي يخرجه من أن يكون معيباً، فأي معنى لقوله «إنه ليس بالجيد»؟ وقد فطن من غرضه لما فيه العذر وزوال العيب والقدح، فكأنه جمع بين الشيء وضده، وإنما يعيب بما ذكره من لم يفطن لما فطن له».

ويسترسل المرتضى في توضيح وتبسيط التعليل الذي ذكره الآمدي للاستدراك الوارد في البيت المذكور بطريقته الخاصة، ثم يواصل إيراد تعليقات الآمدي الأخرى على الأبيات معقباً عليها بالشرح والتفصيل، مقراً ببعضها أحياناً، مقترحاً تفسيرات غيرها أحياناً أخرى على الصورة التالية:

يقول الآمدي: إن أبا تمام في البيت الأول «لم يرد حقيقة النوم، وإنما أراد لم يفتر ولم يسكن كما يقال: فلان لا ينام عن هذا الأمر، أي لا يفتر عنه ولا يقصّر» فيعقب المرتضى على ذلك بقوله: إن إرادة الفتور والسكون هنا أمر «ظاهر لا يشكل مثله فيفسر» فالآمدي فسر ما هو واضح لا يحتاج إلى تفسير بينما يأخذ عليه أنه «ترك تفسير المشكل» وهو عبارة «كان معسولاً من السقم» فلم يبين «كيف استحلى هذا السقم والتذه حتى جعله معسولاً وكأنه ممزوج بالعسل؛ والسقم لا يستحلى»، ثم استطرد المرتضى في تحليل العبارة وبيان معناها. وهذه التفاتة من المرتضى تدل على دقة ملاحظته ومتابعته، كما تشير ـ مع غيرها من التعليقات ـ إلى أن المرتضى يمكن اعتباره مكملاً ومسدداً لزميله

الآمدي في شروحه لكثير من أبيات الشاعرين أبي تمام والبحتري.

ويعلق الآمدي على عبارة «من آخر الليل» التي وردت في البيت الثاني بقوله: «ولم يقل ـ من أول الليل ـ يريد أنه لا ينام بالليل وأنه يسهره، وأنه يهوم في آخره تهويماً فيطرقه الخيال في ذلك الوقت»، فيعلق المرتضى على ذلك بقوله: «ونقول إن الذي قاله الآمدي في معنى تخصيصه آخر الليل دون باقيه جائز ممكن أن يكون مقصوداً. وفيه وجه آخر، وهو: أن الخيال لا يطرق في العادة إلا مع وفور النوم وغزارته والاستثقال فيه، وهذا إنما يكون في آواخر الليل ومع استمرار النوم وطول زمانه، فلهذا خص آخر الليل».

إن هذا التعليق يبين استقلالية المرتضى في النظر والتفسير ويظهر مرونته في الحكم. كما يجسد الفكرة القائلة بإمكانية تعدد المعنى الشعري؛ فالمرتضى يضيف تفسير العبارة «من آخر الليل» كما رأينا، مع إقراره بإمكانية إرادة التفسير الذي طرحه زميله الآمدي. لقد تبنى هذه الفكرة عدد من النقاد المنهجيين البارزين من أمثال عبدالقاهر الجرجاني وتبناها المرتضى وصرح بها مراراً ضمن تعليقاته وإشاراته.

لقد صرح المرتضى بأنه: «ليس يجب أن يستبعد حمل الكلام على بعض ما يحتمله إذا كان له شاهد من اللغة وكلام العرب «لأن الواجب على من يتعاطى تفسير غريب الكلام والشعر أن يذكر كل ما يحتمله من وجوه المعاني، فيجوز أن يكون أراد المخاطب كل واحد منها منفرداً، وليس عليه العلم بمراده بعينه، فإن مراده مغيب عنه»[١٠٥].

إن المرتضى يلتقي فيما صرح به مع عبدالقاهر الجرجاني ونظريته القائلة بأن المزية تكون للكلام الذي يحتمل أكثر من معنى واحد وإن تعدد المعنى أمر وارد وطبيعي في الكلام البليغ[١٠٦]، بينما يختلف مع الآمدي الذي يبدي تحفظاً في تطبيق فكرة تعدد المعنى، لأنه يرى «أن الدلالة رغم تقاربها واشتراكها بين لفظين لا تصح إلا بواحدة منهما»[١٠٧].

إضافة إلى كل ما تقدم فإن تفسير المرتضى وتحليله لعبارة «من آخر الليل...» في المثال السابق الذكر يبدو أقرب إلى الواقع من تفسير الآمدي وتحليله لمعناها من وجهة نظر علماء النفس المتعلقة بالطيف والأحلام[١٠٨].

وقد انتهى المرتضى من تعليقه على الأبيات السابقة بتقرير ملاحظاته الخاصة على طريقة الآمدي في النقد والتعليق. فقد لاحظ أنه «قدح في البيت الأول بما ليس يقدح على اعترافه» وجاهد في نسبته إلى القصور بينما لم يمدح من الأبيات المذكورة ما يستحق المدح، «وما رأيناه أثنى على البيت الثاني من هذه القطعة ولا مدحه بما يستحقه من المدح فإنه في غاية الحلاوة والطلاوة وسلاسة الألفاظ وعذوبة النسج»، واكتفى بمدح الأبيات جملة مدحاً متكلفاً، إذ لم يزد على قوله «وهذه الأبيات حسان وغرض صحيح مستقيم»، والآمدي ـ على حد قول المرتضى ـ لا يقف مثل هذه المواقف ولا يكتفى بمثل هذا

الحكم الموجز العام عندما يعلق على أبيات البحتري، «وما نراك إذا أعجبك أو أطربك معنى للبحتري تقتصر على هذا القدر من المدح». وبهذا ينتهي المرتضى بمطالبة الآمدي بأن يكون عادلاً في حكمه ونقده، وأن يجمع «بين القدح للمقدوح والمدح للممدوح».

وعلى نحو عام فإننا من خلال المثل السابق يمكن أن نتعرف على طريقة المرتضى في النقد، وعلى ما لديه من إحاطة واسعة باللغة ومن ميل إلى الاعتماد على ذوقه الخاص في الاستنتاج والحكم على النص الأدبي، كما يمكننا أن ندرك مدى تأثره بالمنهج الكلامي في تتبعه وتمحيصه وفحصه الدقيق وتعمقه في المناقشة.

ويبدو لنا المرتضى من خلال المثل السابق أيضاً أنه أكثر حرصاً على الموضوعية في الحكم من الآمدي وأكثر منه دقة في الملاحظة، وأطول نفساً في الشرح والتحليل، وأبعد عن الأحكام الانطباعية العامة. وأخيراً فإن هذا المثال يجسد لنا موقف المرتضى من الآمدي، إذ يرى فيه نزعة التعصب ضد أبي تمام والتحيز إلى جانب البحتري، الأمر الذي أشار إليه المرتضى وأكده في مواقف أخرى متعددة[١٠٩]. وشارك فيه نقاداً آخرين[١١٠].

أسس النقد عند المرتضى

يظهر أن المرتضى كان متأثراً بالآمدي في فكرة الموازنة والمقايسة المعللة بين النتاجات الشعرية كأساس للوصول إلى حكم عادل سليم[١١١]، حين قرر في معرض حديثه عما ورد من الشعر في وصف الشيب والشباب أن الإحسان والتجويد في هذا الوصف «يخرجه الاختبار، ويبرزه الاعتبار، ويشهد بتقدم فيه أو تأخر ضم قول إلى نظيره ومعنى إلى عديله واطراح التقليد والعصبية وتفضيل ما فضله السبك والنقد من غير احتشام لحق يصدع به وباطل يكشف عنه ولا محاباة لمتقدم بالزمان على متأخر، فما المتقدم إلا من قدمه إحسانه، لازمانه، وفضله، لا أصله...»[١١٢].

إن التصريح السابق لا يتضمن بياناً لأسس الموازنة والمقارنة التي يتبناها المرتضى فحسب، وإنما يتضمن تقريراً لأهم أسس النقد المنهجي التي قررها النقاد القدامى المبرزون من أمثال الآمدي والقاضي الجرجاني وعبدالقاهر الجرجاني.

يقرر المرتضى هنا أن نقد النص يجب أن يقوم على موازنته ومقايسته بما يماثله ويشاكله في الموضوع، وعلى فحصه وتحليله «الاختبار»، وتذوقه «الاعتبار». وأن يكون الحكم فيه أصيلاً موضوعياً عادلاً، وأن يقرر هذا الحكم دون محاباة ودون «احتشام لحق يصدع به وباطل يكشف عنه ولا محاباة لمتقدم بالزمان على متأخر»، وهذا يعني طرح فكرة التحيز للقديم من النتاج الشعري.

وهو عملياً يطبق هذا المنهج ويرفق أحكامه غالباً بالمقارنة بين الشعراء أو بين النصوص الشعرية المتفقة المعاني أو الأساليب والأغراض ثم يصدر حكمه عليها، وأحياناً

يدع الحكم للقارىء[١١٣]، ولهذا فإن أعمال المرتضى النقدية تعتبر حقيقة نماذج جيدة في النقد النظري وفي النقد التطبيقي أيضاً. وحسبنا أن نتخذ من تحليله لعملية توارد الخواطر والسرقة غير الواعية مثالاً يوضح منهجه النقدي ويبين أصالة هذا المنهج وأصالة وأهمية الأفكار التي يطرحها خلال ممارساته النقدية.

١ ـ توارد الخواطر

المفهوم العام لمصطلح (توارد الخواطر) في النقد العربي هو: اتفاق شاعرين في التفكير أو التخيل بحيث يصلان إلى نتيجة واحدة أو يتوصلان إلى معنى متماثل أو متطابق، أو ينطقان بألفاظ وعبارات متفقة دون أن يلتقي أحدهما بالآخر أو يسمع شعره[١١٤]، وهذا المفهوم ليس ببعيد عما يستفاد من كلمة (توارد الخواطر coincidence) في النقد الحديث[١١٥].

لم يوضح أحد من النقاد العرب في العصر الذي عاش فيه الشريف المرتضى بصورة محددة وصريحة طبيعة (توارد الخواطر) أو (التوارد) و(الموارادة) كما يسمى أحياناً، ولا كيفية وأسباب حدوثه بين الشعراء. إلا أن بعضهم أشار إلى تأثير تشابه الظروف الاجتماعية والطبيعية والثقافية في عملية حدوثه؛ فقد صرح الآمدي بأنه «غير منكر لشاعرين متناسبين من أهل بلدين متقاربين أن يتفقا في كثير من المعاني، لا سيما ما تقدم الناس فيه، وتردد في الأشعار ذكره، أو جرى في الطباع والاعتياد من الشاعر وغير الشاعر استعماله»[١١٦]. وقد أدرك أبو هلال العسكري أيضاً تأثير البيئة المتشابهة، ورأى أن الانحدار من جنس واحد أو سلالة واحدة له أثر أيضاً في حدوث عملية التوارد[١١٧]، كما تنبه محمد بن الطيب الباقلاني إلى فكرة تقارب أساليب التعبير وطرق التفكير نتيجة للتقارب الزمني واتفاق طبيعة الحياة[١١٨].

وقد استخدم المرتضى مصطلح (التوارد) في تعليقاته ومدافعاته عن رأيه في السرقات الشعرية، ولكنه لم يعرف هذا المصطلح ولم يبين أسباب حصوله بوضوح، شأنه في ذلك شأن النقاد الآخرين. غير أننا من خلال تتبعنا الدقيق المستمر لمناقشاته ندرك أن فهمه للمصطلح لا يتجاوز المفهوم العام الذي ذكرناه له، وإن اختلف عن غيره من النقاد فإنما يختلف في طريقة الإشارة إلى هذا المفهوم أو الحديث عن بعض أسباب حدوث التوارد. ولئن أشار بعض النقاد الآخرين كالنقاد الذين سبق ذكرهم إلى مفهوم التوارد أو إلى بعض أسبابه بصورة نظرية، فإن المرتضى أشار إلى ذلك نظرياً ووضحه في أعمال نقدية تطبيقية أيضاً.

صرح المرتضى في بداية حديثه عن السرقة الشعرية في كتابه (الشهاب) بقوله إنه لا يجوز لأحد أن يتهم شاعراً بالأخذ من شاعر آخر لمجرد ملاحظة التشابه بين نصين لهما، «لأنهما ربما تواردا من غير قصد، ولا وقوف من أحدهما على ما تقدمه الآخر إليه»، أو أنهما «قد يتواردان.. ولم يسمع أحدهما بكلام الآخر»[١١٩]. وهذا التصريح يشير إلى أن

مفهوم التوارد بالنسبة للمرتضى هو نفسه المفهوم العام الذي تعارف عليه النقاد الآخرون، ومع ذلك فإن المثال التطبيقي الذي أورده في هذا الصدد يوضح لنا طبيعة التوارد التي قصد إليها بصورة أكثر.

يسوق المرتضى مثلاً على الاتفاق العفوي من واقع تجربته الخاصة، وذلك بما حصل بينه وبين كل من أخيه الشريف الرضي وعبدالله بن المعتز. فهو يورد أبياتاً لأخيه الشريف الرضي في وصف الشيب منها بيت واحد يشبه فيه الشيب بالغبار وهو قوله:

وما شبت من طول السنين وإنما غبار حروب الدهر غطى سواديا

ثم يورد بيتاً آخر لعبدالله بن المعتز فيه تشبيه مماثل وهو:

قالت كبرت وشبت قلت لها هذا غبار وقائع الدهر

وثم بيت ثالث له هو نفسه، قاله في وصف الإبل، يتضمن نفس التشبيه الوارد في البيتين السابقين وهو:

ويهززن عن داعي المراح مفارقاً بلا شمط إلا بياض غبار

ويعلق على هذه الأبيات الثلاثة مقراً بتقاربها الواضح أو تقارب الصورة فيها. وإذا كان لا يشير إلى سبب حصول هذا التماثل بين أخيه وابن المعتز فهو من ناحيته يقول: «وأقسم قسماً برة أني لما نظمت هذا البيت في وصف الإبل ما كنت سمعت قبل من أحد في نظم ولا نثر في تشبيه الشيب بالغبار». وإذن فكيف حصل هذا التشابه بينه وبين الشاعرين الآخرين؟. إنه يعلله بقوله: «إنما اتفق على سبيل التوارد»، كيف أو لماذا حصل هذا التوارد؟ «لأن تشبيه هذا بذاك (أي الشيب بالغبار) أمر مشاهد يجوز أن يقع لمن فكر من غير اتباع منه لغيره»[١٢٠].

والمرتضى يشير في حقيقته بعبارة «أمر مشاهد» إلى أن تشبيه الشيب بالغبار شيء مألوف تتبادر صورته إلى ذهن أو مخيلة كل شاعر يعيش نفس البيئة الطبيعية. وهو يذكر أبياتاً أخرى غير الأبيات الثلاثة المذكورة، تتضمن نفس التشبيه يمكن أن تتخذ كأمثلة صريحة على الفكرة التي أشار إليها، وإن لم يصرح هو نفسه بأنه أوردها لهذا الغرض. يذكر على سبيل المثال قول ابن الرومي:

أطار غبار الشيب فوق مفارقي تلوي سنيني الراكضات أماميا

وقال أبي الجنوب:

قالت أرى شيبا برأسك قلت لا هذا غبار من غبار العسكر[١٢١]

فهذه إشارة واضحة إلى أن تهافت الغبار على الرؤوس في حالة الركض أو في الحرب ظاهرة طبيعية مألوفة آنذاك وصورتها يمكن أن تتبادر إلى ذهن ومخيلة كل شاعر يعيش في نفس البيئة أو في بيئة مماثلة.

وعبارة (أمر مشاهد) التي ذكرها المرتضى لا تقتصر على الإشارة إلى ما يشاهده أو يراه الإنسان في بيئته الطبيعية وإنما على ما يشاهده في بيئته الاجتماعية أيضاً، فإن مشاهد المحيط الاجتماعي المتكررة تنعكس أحياناً بصورة متماثلة في أذهان ومخيلات الشعراء الذين يعيشون في هذا المحيط. وقد ذكر القاضي الجرجاني لفظة (مشاهدة) ليعني بها نفس ما عناه المرتضى من عبارة (أمر مشاهد) وعلى الصورة التي بيناها؛ فهو يقول: إن من المعاني «ما تتسع له أمة وتضيق عنه أخرى ويسبق إليه قوم دون قوم لعادة أو عهد أو مشاهدة أو مراس»[١٢٢].

إن المثال السابق لا شك يدل على مدى إدراك المرتضى لحقيقة التوارد ولأثر الظروف الطبيعية والاجتماعية المتشابهة في عملية حدوثه، وما دام أثر هذه الظروف مستمراً فإن عملية حصول التوارد على الشكل الذي حصل في الأمثلة السابقة تصبح في رأيه مألوفاً: «فكثيراً ما يلحق الشعراء فيواردون في بعض المعاني المسبوق إليها»[١٢٣]، وعلى هذا الأساس لا يجوز عنده اتهام أي شاعر بالسرقة دون دليل ثابت واضح، وما دام احتمال التوارد دائماً موجود فليس هناك دليل قطعي ثابت عليها[١٢٤].

٢ ـ السرقة غير الواعية

ويوسع المرتضى من مفهوم (توارد الخواطر) المتعارف عليه وذلك بربطه بنوع آخر من الاتفاق الذي يسبقه اتصال بين الشاعرين وتأثر من اللاحق بنتاج السابق ومن ثم أخذه غير الواعي من ذلك النتاج، وهذا النوع من الأخذ يمكن أن يكون مطابقاً في طبيعته لما يسمى في النقد الحديث بالسرقة غير الواعية (Unconscious Plagiansm).

لم يبحث أحد من النقاد العرب قبل المرتضى فكرة السرقة غير الواعية، بل إنها بالأحرى لم تكن معروفة في النقد العربي، كما توصل إلى ذلك بحثي، والمرتضى هو الآخر لا يصرح بها ولا يحدد مفهومها، وإنما يشير إليها بعبارة (توارد من غير قصد). وهو وإن لم يحدد بصورة واضحة صريحة ما يعني بالتوارد غير المقصود، إلا أننا من خلال تطبيقاته وسياق عباراته نستطيع أن ندرك بوضوح أنه يشير إلى السرقة غير الواعية أو غير المقصودة.

رأينا أن المرتضى يصرح في المثال الذي أورده على حصول التوارد بقوله: إن تشبيه الشيب بالغبار «إنما اتفق على سبيل التوارد» والعلة في حصول هذا التوارد هي «لأن تشبيه هذا بذاك أمر مشاهد يجوز أن يقع لمن فكر من غير اتباع منه لغيره»[١٢٥]. ونراه في موضع آخر يقول: إنه لا ينبغي أن يقال أخذ فلان الشاعر هذا المعنى من فلان «لأنهما ربما تواردا من غير قصد»، ثم يتبع ذلك بقوله: «ولا وقوف من أحدهما على ما تقدمه الآخر

إليه»، ويعقب على هذا القول بعبارة أخرى هي: «وربما سمعه فنسيه وذهب عنه ثم اتفق له مثله من غير قصد»(١٢٦).

من خلال تحليلنا للعبارات السابقة نستنتج أن المرتضى في الحقيقة يميز بين نوعين من التوارد:

١ ـ توارد بمعنى الاتفاق العفوي الذي يحصل دون اتصال أحد الشاعرين بالآخر، أو كما يقول: «لا وقوف من أحدهما على ما تقدمه الآخر إليه»، أو «لم يسمع أحدهما بكلام الآخر». وهذا هو التوارد المتفق مع المفهوم العام الذي تحدثنا عنه فيما سبق.

٢ ـ توارد بمعنى الاتفاق أيضاً، ولكن الاتفاق الذي يسبقه اتصال بين الشاعرين وسماع اللاحق منهما لما أنتج السابق. ويشير المرتضى إلى هذا الاتصال بقوله: «وربما سمعه فنسيه وذهب عنه ثم اتفق له مثله من غير قصد». وإذن فهذا هو التوارد من غير قصد أو الاتفاق غير المقصود.

ويلاحظ أن المرتضى لا يخلط بين هذين النوعين من التوارد وإنما يفصل بينهما برفق وحذق، فيقول: «لأنهما ربما تواردا من غير قصد»، أي على الصورة الثانية، ثم يقول: «ولا وقوف من أحدهما على ما تقدمه الآخر إليه»، (ويعني أنهما تواردا ولا وقوف من أحدهما...)، أي على الصورة الأولى. ثم إنه في التعليق الآخر يقول: «قد يتواردا على ما ذكرناه..»، أي على الصورة الأولى ثم يذكر النوع الثاني فيقول: «وربما سمعه ونسيه...». وإذن فهو لا يعني (بالتوارد من غير قصد) التوارد وفق مدلوله العام، وإنما يعني به ذلك الاتفاق الناتج عن أخذ غير متعمد أو غير واع.

إنه يشير بقوله: «وربما سمعه فنسيه وذهب عنه ثم اتفق له مثله من غير قصد» إلى أن الشاعر قد يسمع شعراً لشاعر آخر ويتأثر به وبما يحتويه شعره من عناصر، وتترسب في ذاكرته أو في ذهنه هذه العناصر ثم ينساها مع مرور الزمن. ولكونها في الأصل باقية مختزنة في ذهنه مترسبة في ذاكرته بدافع تأثره وإعجابه بها، فإنها تظهر بعد فترة من الزمن طافحة في الذهن في حالة من حالات التفكير أو التخيل، فيصيغها هذا الشاعر في شعره دون وعي منه، ودون إدراك بأنها في حقيقتها لشاعر آخر غيره، وبذلك يحصل التطابق ـ بينه وبين الشاعر الآخر، لا سيما إذا لم يكن هناك أي تحوير أو تغيير في تلك العناصر، أو يحصل التشابه إن كان قد حور فيه أو أضاف إليها من عنده شيئاً. وإذا كان هذا هو ما يعنيه المرتضى من عبارته السابقة فإنه في حقيقته يشير إلى السرقة غير الواعية unconsious plagiarism؛ لأن مفهوم السرقة غير الواعية في النقد الأوربي الحديث لا يكاد يتجاوز في واقعه التوضيح المذكور للعبارة السابقة(١٢٧).

إن ظاهرة السرقة غير الواعية أو الظاهرة (التوارد غير المقصود) حسب تعبير المرتضى، تكاد تكون ظاهرة طبيعية مألوفة، غير مستنكر حدوثها بين الشعراء أو الفنانين

عامة من وجهة نظر النقد الحديث[١٢٨]. وهي في نظر المرتضى كذلك؛ فهو يصرح كما رأينا بقوله: «فكثيراً ما يلحق الشعراء ذلك فيواردون في بعض المعاني المسبوق إليها، وقد كانوا سمعوها فأنسوها»[١٢٩]. وسبب ذلك بالطبع ناتج عن حقيقة ثابتة، وهي أن كل شاعر في العادة يستمد جذور تجاربه الشعرية من تجارب شعرية سابقة، ومن كل ما يختزن في ذاكرته أو في ذهنه من إيحاءات وعناصر وآثار، وكل ما ينفعل به من المعاني والصور والتعبيرات والمواقف المختلفة.

«في كل الفنون هناك أبوة مجهولة. إذا رأيت فناناً عظيماً سترى دائماً أن هذا الفنان قد استخدم كلما أبدع أسلافه من أعمال رائعة، وذلك هو ما جعل منه فناناً عظيماً. إن رجالاً مثل رفاييل لم يخرجوا من الأرض. إنهم استمدوا جذورهم من الآثار القديمة، من أروع الأعمال التي أنجزت قبلهم، ومنها صنعوا أفضل مايمكن أن يصنع في عصرهم»[١٣٠].

ويروي المرتضى لنا حادثة وقعت له مع أخيه الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م) يمكن أن نتخذها مثالاً يوضح التفسير السابق لعبارته: (توارد من غير قصد) بصورة أكثر، ويؤكد إشارته بها إلى فكرة السرقة غير الواعية.

يذكر المرتضى[١٣١]: أنه قال في جملة قصيدة له في سنة نيف وثمانين وثلاثمائة أبياتاً منها:

وعهدي بتمويه عين المحب ... ينم على قلبه الطائر

فلما التقينا برغم الرقا ... د موه قلبي على ناظري

ويقول إن أهل الأدب تداولوا «إنشاد هذه الأبيات واستغربوا هذا المعنى [معنى البيتين المذكورين]، وشهدوا بأنه مستبدأ غير مسبوق إليه ولا متعرض له، وسمع أخي ـ رضي الله عنه ـ هذه الأبيات، لأنه قل ما كان يخرج لي شيء من الشعر إلا ويسمعه وينشده، ولا يخرج له ـ رحمه الله ـ طول حياته إلا وينشدنيه؛ فشهد لهذا المعنى أنه مبتكر مخترع، وأنه مستحسن مستعذب ـ ولم أسمع له ـ رحمه الله ـ طول حياته في هذا المعنى شيئاً». ولكنه ـ كما يقول ـ عندما تصفح شعر أخيه في سنة نيف وعشرين وأربعمائة لإخراج ما يتعلق بوصف الطيف منه وجد أبياتاً في الجزء الثاني من ديوانه اشتملت على معاني أبياته هو، ومن هذه الأبيات قوله (أي الرضي):

كان قلبي إليه رائد عيني ... فعلى العين منه للقلب

كان عندي أن الغرور لطرفي ... فإذا ذلك الغرور لقلبي

ومع أن المرتضى يرى أن لأبياته السابقة الذكر مزية ظاهرة على أبيات أخيه المشار

إليها إلا أنه يرى أن أبيات أخيه استوفت المعنى الذي تضمنه شعره، بل إن البيت الثاني (كان عندي أن الغرور لطرفي) قائم في بنائه أساساً على أبياته هو.

إن مثل هذه الحالة ربما تشكل حالة سرقة مقصودة مفضوحة في نظر كثير من النقاد الآخرين من أمثال النصيبي وابن وكيع وابن أبي طاهر والآمدي... إلا أنها لا تشكل حالة سرقة مقصودة متعمدة عند المرتضى وإنما هي في نظره حالة استلهام وتأثر وأخذ غير واع.

لقد نقل المرتضى أبيات أخيه نقلاً أميناً. ثم أرجع التشابه الموجود فيها مع أبياته إلى سببين محتملين:

١ ـ أن يكون أخوه قد قصد إلى نظم المعنى الموجود في أبياته هو «حتى لا يخلو شعره من المعنى المستغرب المستعذب».

٢ ـ أو أن يكون «أنسي ـ رحمه الله ـ سماعه له (أي لمعنى الأبيات) وقذف به خاطره، وجري على هاجسه فأثبته تقديراً منه أنه مبدع له لا متبع فيه، فكثيراً ما يلحق الشعراء فيواردون في بعض المعاني المسبوق إليها وقد كانوا سمعوها فأنسوها».

إن كلا الاحتمالين يعنيان أن الرضي قد أعجب بأبيات أخيه وتأثر بها، وأن هذا الإعجاب أو التأثر دفعه إلى تضمينها شعره في نظم جاء مماثلاً لنظم أخيه. ولكن أخذ الأبيات أو أخذ معناها في الاحتمال الأول واع ومقصود، إلا أنه لم يقصد به السرقة، وإنما قصد به الاستعارة أو الاحتفاظ بمعاني الأبيات وبما فيها من صور بسبب الإعجاب بها، فقد أعجب الرضي بمعناها فعلاً وكان يراه (مخترعاً مستحسناً مستعذباً) حسب تعبير المرتضى. أما الأخذ في الاحتمال الثاني فإنه أخذ غير مقصود أو غير واع على الإطلاق. حصل ـ كما يمكن أن توحي عبارات المرتضى ـ عن طريق ترسب محتويات النص في ذهن الرضي أو في أعماق ذاكرته ثم اختفاء أصل هذه المحتويات مع مرور الزمن: أي أن الرضي نسي أنه تلقى ما أعاد نظمه من أخيه في الأصل. وهكذا اختلطت العناصر التي اشتملت عليها أبيات أخيه في ذهنه، وفي أثناء عملية التفكير أو عملية التخيل، والتي يقوم بها الشاعر عادة خلال فترة إنتاجه، (قذف بها خاطره وجرت على هاجسه)، فأظهرها في نص شعري جديد فيه شبه كبير من الأصل دون وعي أو قصد منه، معتقداً أن ما جاء به هو من إبداعه وابتكاره، لم يقلد فيه ولم يسرقه من أخيه.

الأفكار السابقة التي استخلصت من عبارات المرتضى المذكورة تلتقي في واقعها مع ما طرحه إدغار آلين بو (Edgar Allan Poe ١٨٠٩ ـ ١٨٤٩ م) خلال تحليله لفكرة السرقة غير الواعية unconsious plagiarism:

يقول بو: «كل ما يعجب به الشاعر يصبح في الواقع جزءاً من روحه. إنها تصبح نشأة منفصلة تماماً، على الرغم من أنها منبثقة من منشئها الأول، وبالتالي فإن الشاعر يمكن أن يملك فكرة شخص آخر ولا يقال تملكها أو ادعاها، بل إنه على كل الأحوال يشعر تماماً

أنها ملكه وهذا الشعور لا يبطله أو يناقضه إلا وجودها الفعلي المحسوس في مصدرها الأصلي، الكتاب الذي استمدها الشاعر منه، هذا المصدر الذي يكاد يكون من الصعب تذكره مع مرور السنين الطويلة، إنه سينسى، وتنسى في الوقت نفسه الفكرة التي استقيت منه، إلا أن ذلك التداعي والترابط الدقيق في الذاكرة سيعيد إليها الحياة مرة أخرى، إنها تنبثق بكل ما للميلاد الجديد من حيوية ونشاط، أصيلة أصالة مطلقة، لا يمكن حتى أن تكون موضعاً للشك. وعندما يكتبها الشاعر ويعلنها فتعد مسروقة لن يكون هناك أحد في العالم أكثر منه شعوراً بالدهشة لهذه التهمة»(١٣٢).

هذا هو بالفعل ما يعتقده المرتضى، كما تشير إلى ذلك تعليقاته وتصريحاته، ولذلك فهو بدلاً من أن ينسب أخاه إلى السرقة أو يشكك في نسبة الأبيات المذكورة إليه. أثبتها له ونقلها على أنها جزء لا يتجزأ من ديوانه ومن إبداعه الخاص، رغم مماثلتها أو مطابقتها لأبياته هو. وبهذا فإن التوارد أو الاتفاق دون قصد، أو بتعبير آخر السرقة غير الواعية تصبح عند المرتضى من الأسباب التي «تؤدي إلى التشابه الذي لا يسلب مدحاً ولا ينقص فضلاً»(١٣٣).

إن المرتضى يلتقي كما رأينا مع (إدغار آلين بو) في إدراكه وتحليليه لفكرة الاتفاق غير المقصود والأخذ غير الواعي وفي موقفه من هذا الاتفاق وهذا الأخذ، ولئن كان تحليل (بو) لهذه الفكرة أكثر دقة وتفصيلاً. فقد تميز المرتضى بمعالجته للفكرة في إطار نظري وتطبيقي ومرتبط بالتجربة الشخصية.

ويكاد المرتضى ينفرد بتحليله الدقيق لعملية التوارد والربط بينها وبين فكرة التأثر والإعجاب والأخذ غير الواعي أو (السرقة غير الواعية) على الصورة التي رأيناها، فلا أعلم أن أحداً من النقاد سبقه إلى ذلك، لا سيما وأن توضيحاته وتحليلاته جاءت في إطار تطبيقي ومستوحى من تجربة شخصية هي تجربة شاعر وناقد في آن واحد. وقد أشار الآمدي إلى السرقة غير الواعية عندما صرح بأن البحتري «قد استعار بعض معاني أبي تمام لقرب البلدين، وكثرة ما كان يطرق سمع البحتري من شعر أبي تمام فيعلق شيئاً من معانيه متعمداً الأخذ أو غير متعمد»(١٣٤). إلا أن الآمدي لم يربط فكرته هذه بعملية توارد الخواطر بشكل صريح مباشر، ولم يرجع أسباب حصول الأخذ غير الواعي إلى عملية التأثر والإعجاب وإنما أرجعها ـ كما رأينا ـ إلى قرب مكان أو بلدي الشاعرين، والسماع المتكرر من أحدهما لنتاج الآخر بسبب تداول هذا النتاج بين الناس.

ويتفق ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م) مع المرتضى في تفسير عملية التوارد وربطها بالتأثر اللاواعي وفي تبرير الاتفاق بين شاعر وآخر حيث يقول: «يمر الشعر بمسمعي الشاعر لغيره فيدور في رأسه، ويأتي عليه الزمان الطويل فينسى أنه سمعه قديماً». ويعقب القيرواني على ذلك معللاً حصول التشابه بقوله: «وربما كان ذلك اتفاق

قرائح، وتحكيكاً من غير أن يكون أحدهما أخذ من الآخر»[١٣٥].. ويلاحظ أن عبارتي ابن رشيق فيهما شبه كثير من حيث المضمون من عبارة المرتضى السابقة الذكر: (أنسي سماعه له وقذف به خاطره وجرى على هاجسه... فكثيراً ما يلحق الشعراء ذلك فيواردون في بعض المعاني المسبوق إليها وقد كانوا سمعوها فأنسوها)، كما أنها متقاربة معها في اللفظ، وكأن عبارتي ابن رشيق جاءتا توضيحاً لعبارة المرتضى أو إعادة لصياغة مضمونها، وبهذا فإن هناك احتمال أن يكون القيرواني قد تأثر بالمرتضى في هذه الفكرة أو استفاد من تعليقاته عليها وتحليلاته لها. ويؤيد هذا الاحتمال أن القيرواني يذكر عبارة (اتفاق من غير قصد) ولا يوضح معناها بصورة صريحة، ولكن من سياق حديثه يتبين لنا أنه يميز بين السرقة الصريحة وبين الاتفاق العفوي والاتفاق غير المقصود.

يقول القيرواني في دفاعه عن بيت لابن المعتز مشابه في المعنى لبيت آخر: «وهذا لا يكون سرقة لأنها تكون فاضحة، ولا يكون اتفاقاً من غير قصد لأن القصيدة مشهورة ولا يمكن لابن المعتز أن يقول لم أسمعها»[١٣٦]. وإذن فالسبب لا بد أن يكون التوارد أو الاتفاق العفوي الذي لم يسبقه سماع. ومن الملاحظ أن القيرواني يريد بـ (الاتفاق من غير قصد) هنا، الاتفاق الذي سبقه سماع واحتكاك بين الشاعرين، وبتعبير آخر (السرقة غير الواعية)، وقد فعل القيرواني تماماً كما فعل المرتضى فأورد التصريحين السابقين بعد ذكره لعبارة (اتفاق من غير قصد) وكأنه يريد أن يوضح ما أراد بهذه العبارة[١٣٧].

إن عدداً من النقاد الذين يبدون نوعاً من التسامح تجاه مشكلة سرقات الشعراء، كالجاحظ والعسكري والآمدي والجرجاني اعتبروا توارد الخواطر سبباً من الأسباب البارزة والوجيهة في حدوث التشابه بين الشعراء في المعاني والألفاظ والتعبيرات الشعرية المختلفة، أما المرتضى فيكاد يفوق كل أولئك النقاد في التأكيد على أهمية (التوارد) وعلى ضرورة ربطه بظاهرة التشابه بين الشعراء وبالتالي اتخاذه كمبرر لنفي السرقات عن كثير من النصوص الشعرية التي تعتبر سرقات في نظر غير المعتدلين من النقاد.

بعد هذا كله يمكن القول بأن المرتضى كناقد لا يقل أهمية عن بقية النقاد البارزين في عصره، فأعماله النقدية الموجودة، تدل على إحاطته الواسعة بأصول النقد ومقاييسه وآراء النقاد الذين عاصرهم، وعلى منهجه النقدي الدقيق، كما أن هذه الأعمال تضمنت عدداً من الآراء النقدية الأصيلة الهامة، واشتملت على مناقشات لأبرز القضايا النقدية التي عرفت في عصره، وعلى نماذج قيمة للنقد التطبيقي، وكل هذه صفات كفيلة بأن ترقى بالشريف المرتضى فتجعله في مستوى أبرز نقاد عصره.

خلاصة

لقد تبين ضمن هذه الدراسة أن المرتضى عاش في بيئة كثرت فيها النزاعات

السياسية والخلافات الاجتماعية، إلا أن الحركة الفكرية كانت نشطة والثقافة مزدهرة. وقد تفاعل المرتضى مع هذه البيئة وتأثر بها تأثراً إيجابياً كبيراً. ارتبط جزء كبير من حياته بقضايا النزاع العقائدي وما صاحبه أو نتج عنه من نشاطات فكرية فأفاده ذلك كثيراً في تطوير حصيلته العلمية وتثبيت مكانته الاجتماعية. وكان التنافس على استقطاب وتقريب الشخصيات الاجتماعية ورجال المعرفة الذي رافق النزاع السياسي ذا أثر واضح في زيادة نفوذه اجتماعياً وفي الارتقاء بمكانته العلمية؛ إذ تمكن من توثيق علاقاته بالأطراف المتنافسة أو المتنازعة وكسب احترامها. وكانت هذه العلاقات عاملاً في زيادة فرص احتكاكه بمصادر ثقافية رفيعة المستوى وفي زيادة نشاطاته العلمية والأدبية، وقصائد التعازي والتهاني والمديح والرثاء الكثيرة التي نظمها المرتضى في المبرزين من علماء وأدباء وأمراء ووزراء وكبار الشخصيات في عصره، والكتب التي ألفها تلبية لرغبة بعض رجال الدولة آنذاك يمكن أن تكون أدلة على ما استطاع المرتضى أن يحقق من علاقات وعلى ما عادت به تلك العلاقات من نتائج إيجابية ومن آثار في بناء شخصيته العلمية والأدبية والاجتماعية.

إن مراحل حياة المرتضى وما مرت بها هذه الحياة من تطورات تجسد العناصر التي اشتركت في بناء شخصيته، وتعكس الأبعاد التي بلغتها، والمستويات التي انتهت إليها؛ فظروفه العائلية ونشأته وعلاقاته الاجتماعية وطموحاته الكبيرة كلها كانت باعثة ومشجعة على ممارسة النشاطات الفكرية الفعالة، وقدراته الذهنية العالية ومواهبه الشخصية كانت مهيأة للأخذ والاستيعاب والعطاء المثمر. بينما كانت المصادر التي استقى منها ثقافته في كل مراحل حياته ثرية واسعة ومتعددة. لذلك كانت الحصيلة الفكرية التي اكتسبها وظهرت دلائلها وآثارها في مؤلفاته الكثيرة عميقة، واسعة، متنوعة وغنية.

دلت مؤلفات المرتضى البارزة التي تم فحصها والتعريف بها ضمن هذه الدراسة على تعدد وتنوع خبراته وتشعب واتساع معارفه، وعلى تضلعه، ليس في مجال العلوم الإسلامية والعقائد والكلام فحسب، وإنما في الأدب والشعر والنقد أيضاً. فقد أثبت جزء هام من هذه المؤلفات بما احتواه من نظريات وآراء وأفكار أن مكانة المرتضى كأديب وشاعر لا تقل كثيراً عن مكانته كعالم دين ومتكلم ولغوي ومفسر. أما بالنسبة للنقد فقد تبين أن المرتضى لا يقل في مؤهلاته وخبراته واطلاعه وبراعته كناقد عن بقية نقاد عصره البارزين. إن دراستنا لبعض أعماله النقدية والأدبية دلت ـ كما رأينا ـ على أنه كان ملماً بكثير من النظريات والآراء النقدية، وأنه خبير بأصول وقواعد النقد التي كانت مألوفة في عصره، كما دلت على أن له منهجاً نقدياً متميزاً، تغلب فيه الموضوعية على الانطباعية، والدقة والعمق في الدراسة والتقويم والحكم على العمومية، ويختلط فيه ذوق الشاعر الصقيل المهذب وإحساسه المرهف بعقلانية العالم والفيلسوف وجفاف أسلوبه، ويجتمع فيه البحث النظري مع الدرس العملي التطبيقي. وقد اتضح أن كتبه المذكورة تحوي من

النظريات والآراء الهامة في الشعر والنقد والبلاغة ما يجعلها جديرة بالدراسة والبحث، لتأخذ موضعها المناسب من التراث النقدي العربي وتؤدي دورها في تطوير الدراسات والنشاطات النقدية المقبلة..

الهوامش والمراجع

(١) انظر أحمد بن مسكويه: **تجارب الأمم**، ج٢، بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٥، ص٣٠٧، ٩٠٤، عز الدين ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ج٨، بيروت: دار صادر، ١٣٨٦/١٩٦٦، ص٤٥٢-٤٥٣، عبد الرحمن بن الجوزي: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٧، حيدر اباد: مطبعة دار المعارف العثمانية، ١٣٥٨، ص١٠٤، ١٠٧.

(٢) محمد بن جرير الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، ج٣، سلسلة ذخائر العرب، رقم (٣) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٧/١٩٦٧، ص٣٢١، حسن أحمد محمود وأحمد ابراهيم الشريف: **العالم الإسلامي في العصر العباسي**، بيروت: دار الفكر العربي، د.ت، ص٥٢٥-٥٢٦.

(٣) المنتظم، ج٧، ص٢٠٦، العالم الإسلامي، ص٥٢٥-٥٢٦.

(٤) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج٤، بيروت: دار صادر، ١٣٧٤/١٩٥٥، ص٢٥٥. الكامل في التاريخ، ج٨، ص٦٢٨، المنتظم، ج٧، ص١٩، ٨٨، ٢٢٠.

(٥) المنتظم، ج٧، ص٦٨، تجارب الأمم، ج٢، ص٣٤٠-٣٤١، محمد جمال الدين سرور: **تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري**، بيروت: دار الفكر، د.ت، ص٢٩-٣٧.

(٦) الكامل، ج٩، ص٣٧، ٤٢، المنتظم، ج٧، ص٥١، ٥٩، ٦٠، ١٢١-١٢٢، ١٢٦، حول القرامطة انظر عبد الرحمن بن خلدون: **كتاب العبر**، ج٤، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٨، ص٣ وما بعدها.

(٧) انظر محمد بن أحمد المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، بيروت: مكتبة خياط، ١٩٦٥، ص٤٤٩، هلال بن محسن الصابي: **الوزراء، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٥٨، ص٣٠٦، تجارب الأمم، ج٢، ص٣١٤ - ٣١٥، ١٨٣، الكامل، ج٨، ص٦٢٩، المنتظم، ج٧، ص٦١.

(٨) آدم متز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، عصر النهضة في الإسلام**، ج١، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريه، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٧/١٩٥٧، ص٣٠٣-٣١٥.

(٩) انظر: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، ص٣٠١-٣٠٢ وما بعدها، ابن النديم: **الفهرست**، القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٣٤٨/١٩٢٩، ص٩١-٩٢، ١٢٤، ٤٧.

(١٠) الحضارة الإسلامية، ج١، ص٣٣٥-٣٣٦. **Ignaz Goldziher, Introduction to Islamic Theology and law**, trans by Andros and Ruth Hamori (Princeton: The University Press, 1981) P.9,87.

(١١) الحضارة الإسلامية، ج١، ص٣٤٦ وما بعدها.

(١٢) راجع ص ٢١٥-٢١٦، وبقية القوائم المتضمنة للأعمال الأدبية والأعمال الأخرى المتعلقة بها والتي صدرت حتى وفاة ابن النديم سنة (١٠٤٧).

(١٣) جلال الدين السيوطي: **تاريخ الخلفاء**، تحقيق لجنة من الأدباء، بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٠، ص٣٢١، ٣٦٠، علي بن الحسين المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج٣، تحقيق

محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٨٥/١٩٦٥، ص٣٧٩-٣٨٩ وما بعدها.

(١٤) عبد الملك الثعالبي: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، ج٢، تحقيق محي الدين عبد الحميد، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٧٥/١٩٥٦، ص٢١٦-٢٢٣، وكذلك ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج٤، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٨، ص٥٠-٥٥.

(١٥) See Reynlod A. Nicholson, **A literany History of the Arabs,** Combridge The University Press, 1956, P.267.

(١٦) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٤٤٩.

(١٧) وفيات الأعيان، ج١، ص٥٢، الشريف المرتضي: **طيف الخيال**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨١/١٩٦٢، مقدمة المحقق، ص٣٥.

(١٨) وفيات الأعيان، ج٤، ص٥١.

(١٩) وفيات الأعيان، ج٤، ص٥١ وما بعدها.

(٢٠) انظر محمد عبد الكريم الشهرستاني: **الملل والنحل**، تصحيح وتعليق أحمد فهمي محمد، القاهرة: مكتبة الحسين التجارية، ١٩٤٨، ص٤ وما بعدها.

(٢١) محمد بن الحسين الطوسي: **الفهرست**، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، النجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٨٠-١٩٦١، ص١٨٦-١٨٧، انظر كذلك المنتظم، ج٨، ص١١.

(٢٢) عبد الله بن أسعد اليافعي: **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**، حيدر آباد، ١٣٣٧/١٩١٩، حوادث سنة ٤١٣.

(٢٣) محمد باقر الخوانساري: **روضات الجنات**، ج٢، طهران: مكتبة اسماعيليان، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠، ص٥٨٠-٥٨٤.

(٢٤) أحسن التقاسيم، ص١٨٣.

(٢٥) أول كتاب بحث قضية إعجاز القرآن في نظمه وأسلوبه هو كتاب (نظم القرآن) للجاحظ، انظر محمد الطيب بن الطييب الباقلاني: **إعجاز القرآن**، تحقيق السيد أحمد صقر، سلسلة ذخائر العرب (٢٢) القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٤، مقدمة المحقق، ص٩.

(٢٦) إعجاز القرآن، مقدمة المحقق فقد ذكرت العديد من هذه المؤلفات.

(٢٧) - See Gustove E Von Grunebaum, **A Tenth Contury Document of Arabic Literary Theory and Criticism: The Section on poetry of al Baqillani's I'jaz al-Qur'an translation and on nation,** Chicago: The Uneversity Press, 1950, part. 11 and part. 111 P. 56-120.

كذلك، إحسان عباس: **«النقد وفكرة الإعجاز» في تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، بيروت: دار الثقافة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ص٣٣٧.٣٥٩.

(٢٨) د.محمد مندور: **النقد المنهجي عند العرب**، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٦٠، ص٦٨.

(٢٩) - See S.A.Bonebaker «The Influence of Greek Pheilosophy on The Naqd al-Shicr» and «The Influence of Naqd al-Shicr on later works» in The **Kitab Naqd al-Shicr of Qudama B. Gacfar al-Katib al-Baghdadi,** Leiden: Brill, 1956, pp.36-44 and 44-60.

(٣٠) يتيمة الدهر، ج١، ص١٢٧.

(٣١) انظر إحسان عباس: **«المعركة النقدية حول المتنبي» في تاريخ النقد الأدبي عند العرب**،

ص٢٥٢-٣٣٥.

(٣٢) الطوسي، الفهرست، ص١٢٥، رجال الطوسي، ص٤٨٤، وفيات الأعيان، ج٣، ص٣١٣، الحموي: **إرشاد الأديب**، ج٥، ص١٧٣.

(٣٣) المنتظم، حوادث سنة ٣٨٠، ج٧، ص١٥٣.

(٣٤) عز الدين ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة**، ج١، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٨/١٩٥٩، ص٣٢-٣٣.

(٣٥) المنتظم، ج٧، ص٢٢٦-٢٢٧.

(٣٦) انظر: **ديوان الشريف المرتضى**، تحقيق رشيد الصفار المحامي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨، ج١، ص٢٧٩.٢٨٤، ج٢، ص١٧، ١٢، ١١٣، ج٣، ص٣١، ٣٠٣، ٣٤٧.

(٣٧) شرح نهج البلاغة، ج١، ص٤١، روضات الجنات، ج٤، ص٢٩٥.

(٣٨) المنتظم، ج٧، ص١٥٣.

(٣٩) انظر ديوان الشريف المرتضى، المقدمة. ج١، ص١١، ١٠١، وما بعدها، قصيدة طويلة للمرتضى في مدح الطائع، ج٣، ص٨٧-٩٢، وكذلك، ج٢، ص٦٥، ١٨١، ١٢، ٣٧، ٢١٤، ١٨٦، ٢٣٠.

(٤٠) انظر قصيدة المرتضى في رثاء الصابىء والتي تبين علاقته الوثيقة به، الديوان: ج٢، ص٣٤٩-٣٥٢.

(٤١) المنتظم، ج٧، ص٢٧٦.

(٤٢) علي بن محمد الماوردي: **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، القاهرة: الحلبي ١٣٨٠/ ١٩٦٠، ص٩٦-٩٧.

(٤٣) الأحكام السلطانية، ص١٠٨ وما بعدها.

(٤٤) الأحكام السلطانية، ص٧٧ وما بعدها.

(٤٥) المنتظم، ج٧، ص٢٦٣، ج٨، ص٦٦، ٧٩.

(٤٦) المنتظم، ج٨، ص٨٩.

(٤٧) المنتظم، ج٧، ص٣٣٤.

(٤٨) المنتظم، ج٨، ص٢٢،٥٥.

(٤٩) انظر: الإرشاد (معجم الأدباء)، ج٥، ص١٧٣، كمال الدين ابن الفوطي: **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب**، ج٤، تحقيق مصطفى جواد، دمشق: المطبعة الهاشمية، ١٩٦٢، قسم(١) ص٦٠٠ وما بعدها، علي بن الحسن الباخرزي: **دمية القصر**، تحقيق سامي مكي العاني، بغداد: مطبعة المعارف، ١٣٩٠/١٩٧٠، ص٢٩، جلال الدين السيوطي: **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، ج٢، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة: الحلبي، ١٣٨٤/١٩٦٥، ص١٦٢، روضات الجنات، ج٤، ص٢٩٥.

(٥٠) علي بن بسام الشنتريني: **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق احسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ١٣٩٩/١٩٧٩، القسم ٤، ص٤٦٥.

(٥١) الثعالبي: **يتيمة الدهر**، ج١، تحقيق عباس إقبال، طهران: مطبعة فردين، ١٣٥٣/١٩٣٤، ص٥٣.

(٥٢) وفيات الأعيان، ج٥، ص١٧٣.

(٥٣) انظر عبد الحي بن أحمد ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج٣، القاهرة: مكتبة القدس، ١٣٥٠-١٣٥١/١٩٣٠-١٩٣٢، ص٢٥٦ وما بعدها، اسماعيل بن عمر بن كثير: **البداية والنهاية في التاريخ، ج٢**، القاهرة: السعادة، ١٩٣٢، ص٥٣.

(٥٤) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: **لسان الميزان**، ج٤، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٣٩٠/ ١٩٧١، ص٢٢٤، روضات الجنات، ج٤، ص٢٨٩-٢٩٩، عبد الله أفندي الاصبهاني: **رياض**

العلماء وحياض الفضلاء، ج٤، تحقيق أمجد الحسيني، قم: مطبعة الخيام، ١٤٠١/١٩٨٠، ص٦١.

(٥٥) مصطفى جواد: **مقدمة ديوان الشريف المرتضى**، ج١، ص١٩، عبد الرزاق محي الدين: **أدب المرتضى**، بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٥٧، ص٥٧-٥٩، عباس القمي: **الكنى والألقاب**، النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٦٩، ج٢، ص٤٨٠ وما بعدها.

(٥٦) يتيمة الدهر، ج٢، ص٣٨٠، الكنى والألقاب، ج١، ٤٢٤، روضات الجنات، ج٤، ص٣٠٣.

(٥٧) وفيات الأعيان، ج٤، ص٣٥٤، (المرزباني)، المنتظم، ج٧، ص١٧٧، روضات الجنات، ج٤، ص١٩٩-٣٠٠.

(٥٨) انظر: محسن بن محمد بن كرامة الحبشي: **شرح العيون**، ضمن كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٣٩٣/١٩٧٤، ص٣٨٣. المؤلف بشير إلى علاقة المرتضى بالقاضي عبد الجبار ويثني عليه.

(٥٩) لسان الميزان، ج٤، ص٢٢٣.

(٦٠) أدب المرتضى، ص١٢٢.

(٦١) روضات الجنات، ج٤، ص٢٩٦.

(٦٢) رياض العلماء، ج٤، ص٢١، ٢٢.

(٦٣) الطوسي، الفهرست، ص١٢٦، روضات الجنات، ج٤، ص٢٩٩-٣٠٠ رياض العلماء، ج٤، ص١٦-١٧.

(٦٤) الطوسي: **تلخيص الشافي**، تحقيق حسين بحر العلوم، النجف: مطبعة الآداب، ١٣٧٣/١٩٦٣. مقدمة المؤلف ص٦١.

(٦٥) المنتظم، ج٨، ص١٢٠.

(٦٦) لسان الميزان، ج٤، ص٢٢٤.

(٦٧) انظر: محمد بن علي بن شهرآشوب: **معالم العلماء**، تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم، النجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٨٠/١٩٦١، ص٦٩-٧٠، الطوسي، الفهرست، ص١٢٥-١٢٦، مقدمة ديوان الشريف المرتضى، الديوان، ج١، وص١١٩-١٣٤.

(٦٨) انظر: ديوان المرتضى، ج١، مقدمة الصفار، ص١٢٦.

(٦٩) انتهى المرتضى من تأليف كتابه الشهاب ـ كما يشير هو نفسه ـ سنة ٤٢١، انظر الشريف المرتضى: **الشهاب في الشيب والشباب**، قسطنينية الجوائب، ١٣٠٢هـ، ص٩٩، هناك دلائل تشير أيضا إلى أنه ألف كتابه طيف الخيال في سنة ٤٢٢، انظر: طيف الخيال، ص٩٥، ومقدمة المحقق ص٣٦-٣٧.

(٧٠) طبع هذا الكتاب عدة طبعات ـ كما أشير إلى ذلك من قبل ـ وآخر هذه الطبعات ـ على حد علمي ـ هي التي صدرت بتقديم محمد رضا حسن الخرسان، (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٩١هـ/١٩٧١م)، وهذه هي الطبعة التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة.

(٧١) الشريف المرتضى: **الانتصار**، ص١.

(٧٢) الانتصار، مقدمة المحقق، ص٤٥-٤٦ وما بعدها.

(٧٣) طبع هذا الكتاب في مجلدين بتحقيق وتقديم أبو القاسم كرجي (طهران: انتشارات دانشكا طهران، ١٣٨٢/١٩٦٧).

(٧٤) انظر: أدب المرتضى، ص١٥٠.

(٧٥) طبع هذا الكتاب في جزئين في طهران، ١٣٠١/١٨٨٣.

(٧٦) انظر: الشريف المرتضى: **الشافي**، ج١، ص٢، ٣.

(٧٧) لخص محمد بن الحسن الطوسي تلميذ المرتضى هذا الكتاب، انظر رقم (٦٤) من هذه

الملاحظات.

(٧٨) طبع هذا الكتاب عدة طبعات آخرها وأحسنها ـ على حد علمي ـ الطبعة التي صدرت بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٣/١٩٥٤)، وهذه هي الطبعة التي استخدمت في هذه الدراسة.

(٧٩) للأمثلة على ذلك انظر الشريف المرتضى: **الأمالي**، ج١، ص٤، ١٨-١٩، ٦٠، ج٢، ص٩٥-٩٦، ١٥٧.

(٨٠) على سبيل المثال انظر: الأمالي، ج١، ص١٤٢-١٩٩، ٢٤٤-٢٦٩، ٥٩٢ وما بعدها.

(٨١) الطوسي، الفهرست، ص١٢٥، علي بن يوسف القفطي: **أنباه الرواة على أنباه النحاة**، ج٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٧١، ص٢٥٠.

(٨٢) الديوان، مقدمة المحقق، ج١، ص١٣٧.

(٨٣) الديوان، ج٢، ص٦٥-٦٦، ٣٤٩ (في الصابي).

(٨٤) الديوان، ج٢، ص٢٣٠-٢٣٢، (في جلال الدولة)، ص٥٣ (في عاشوراء).

(٨٥) للأمثلة على ذلك انظر: الشهاب، ص٢٦، ٢٨، ٣٣، ٣٨-٤٠.

(٨٦) كمثال على ذلك انظر الصفحات ٤-٦، ٩، ١٠، ١١-١٢، ١٥.

(٨٧) طبع هذا الكتاب عدة طبعات، وأحسن هذه الطبعات هي الطبعة التي صدرت بتحقيق حسن كامل الصيرفي، (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٣٨١/١٩٦٢)، فهي أحسنها من حيث الطباعة والتحقيق معا. وهي الطبعة المعتمدة في هذه الدراسة.

(٨٨) انظر: مقدمة المؤلف، ص٣.

(٨٩) كمثل على ذلك انظر: ص٨-١٠، ١١-١٣-١٦، ٢٣، ٢٥-٢٦، ٤٠-٤٧.

(٩٠) صدرت بتحقيق محمد الخطيب، (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م)، وقد طبعت هذه القصيدة أيضا مع الشرح بمصر سنة ١٣١٣هـ، بعنوان «القصيدة المذهبة»، ضمن مجموعات شعرية منوعة.

(٩١) طبعت للمرتضى مجموعة كبيرة من الرسائل في موضوعات إسلامية متعددة بعنوان: «**رسائل الشريف المرتضى**»، تحقيق وتقديم السيد أحمد الحسيني، النجف: مطبعة الآداب، ١٩٦٦، وقد صدرت عن مؤسسة النور في بيروت كتاب بعنوان: «رسائل الشريف المرتضى» أيضا في ثلاثة أجزاء، إعداد السيد مهدي رجائي، وتقديم وإشراف السيد احمد الحسيني، (لات)، يضم مجموعة أكبر من المجموعة الأولى المذكورة.

(٩٢) انظر الطوسي، الفهرست، ص١٢٦، معالم العلماء، ص٧٠.

(٩٣) للتمثيل على ذلك انظر: الأمالي، ج١، ص٧، ج٢، ص٩٤، ٢٥٠، الشهاب، ص٣، طيف الخيال ص٣٧.

(٩٤) الأمالي، ج ١، ص ٤، ٦٧، ٢٧٩، ٥٧٤، ٥١٨؛ ج ٢، ص ٩٥ ـ ٩٦، ٢٥٠، ٣٠٩ ـ ٣١٤؛ ـ الشهاب، ص ٣، ٣٩، ٨٣؛ طيف الخيال، ص ٧٤ ـ ٧٥، ٨٢، ١٢٢.

(٩٥) الشهاب، ص ٣؛ طيف الخيال، ص ١٦٨، ١٤٨.

(٩٦) الأمالي، ج ١، ص ٤، ٢٦، ١٨٩، ج ٢، ص ٤٣، ٧٥، ٩٥ ـ ٩٧، ١٢٢، ٣٠٩ ـ ٣١٤، ٧٣ ـ ٧٥، ٣٧٢؛ الشهاب، ص ٣، ٣٩.

(٩٧) انظر:

Ahmad Muhammad Al-Matouq., **Al-Sharif Al-Murtada Contribution to the Theory of Plagiarism in Arabic Poetry,** PH.D. Dissertation, University of Pennsylvania 1987, U.M.I.no. 87139974.

لقد خصصت هذه الرسالة لدارسة نظرية الشريف المرتضى في قضية السرقات الشعرية مع كل ما

ارتبطت به من موضوعات وقضايا نقدية على ضوء النظريات المطروحة فيها من قبل النقاد العرب منذ بدايات النقد العربي المنهجي العربي وحتى منتصف القرن الخامس الهجري مع مقارنتها في عدد من جوانبها بالنظريات الحديثة في النقد الأوربي.

(٩٨) انظر: الأمالي، ج ٢، ص ٥٩٦ ـ ٥٩٧، (حول الصولي)، وص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ (حول ابن عمار).

(٩٩) الأمالي، ج ٢، ص ٩٥ ـ ٩٧.

(١٠٠) الأمـــالـــي، ج ١، ص ٦١٠ ـ ٦١١، ٦٢٤ ـ ٦٢٥، ج ٢، ص ٩١ ـ ٩٣، ٩٤ ـ ٩٧، ٢٣؛ الشهاب، ص ٤ ـ ١٩؛ طيف الخيال، ص ٨ ـ ٩، ١٠، ١٢، ١٣، ١٩، ٢٢ ـ ٢٣.

(١٠١) كأمثلة على ذلك انظر: الأمالي، ج ١، ص ٦١٠ ـ ٦١١، ٦٢٤ ـ ٦٢٥، ج ٢، ص ٩٤ ـ ٩٧، طيف الخيال، ص ١٠ ـ ١٣، ٤٧ ـ ٥٢؛ الشهاب، ص ٥ ـ ١١، ١٩، ٢٦.

(١٠٢) الأمالي، ج ١، ص ٦٢٥؛ الشهاب، ص ٢١؛ طيف الخيال، ص ٣٧.

(١٠٣) كمثل على ذلك انظر: الأمالي، ج ٢، ص ٢٥٠.

(١٠٤) انظر: طيف الخيال، ص ٧ ـ ٨ والتعليق في الصفحات التي تليها.

(١٠٥) الأمالي، ج ١، ص ١٩؛ أنكر أستاذنا الدكتور عبدالرزاق محي الدين على المرتضى فكرته في تعدد المعنى في العبارة الشعرية أو الكلام البليغ واعتبرها من آثار المنهج الفقهي والمنهج الكلامي في نقد المرتضى ولا تليق بالمنهج النقدي؛ انظر أدب المرتضى، ص ٢٠٠. وهذا على خلاف ما يراه معظم نقاد الأدب المنهجيين الذين يرون أن استنباط المعنى من النص الأدبي لا يعتمد فيه على الدلالة المعجمية المحددة للألفاظ فحسب، وإنما يعتمد على السياق أيضا، وقد تكون للسياق دلالات وظلال فرعية متعددة بحسب الموقف الانفعالي وقد تكون للنص أبعاد معنوية متعددة مقصودة أيضاً. للتفصيل في هذه المسألة انظر: فايز الداية: **الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري**، دمشق: دار الملاح للطباعة والنشر، ١٩٧٨م، ص ١٥٥ ـ ١٦٨، ٣٣٣ ـ ٣٥٨.

(١٠٦) انظر: عبد القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢، ص ٢٠٢، ٢٢١ وما بعدها.

(١٠٧) الجوانب الدلالية في نقد الشعر، ص ٣٣٨.

(١٠٨) لقد تحدث علماء النفس عن الأحلام وقرروا أن الحلم أو الطيف عادة ما يحدث للإنسان السوي في الثلث الأخير من الليل أو ما أسموه بالمرحلة الرابعة من النوم؛ انظر: فاخر عاقل: **أصول علم النفس وتطبيقاته**، ط ٦، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤ م، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧.

(١٠٩) طيف الخيال، ص ١٩، ٤٠؛ الشهاب ص ١٩.

(١١٠) لا ينفرد المرتضى باتهامه للآمدي بالتعصب ضد أبي تمام والتحيز للبحتري وإنما يشاركه في ذلك عدد من النقاد العرب ومن معاصريه على الأخص، إلا أن بعض الباحثين العرب المعاصرين ينفي هذه التهمة عنه؛ انظر: النقد المنهجي عند العرب، ص ١٤٥ ـ ١٤٩.

(١١١) انظر رأي الآمدي: في ذلك في **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**، ط ٢، ج ١، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة: دار المعارف، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢م، ص ٥ ـ ٦.

(١١٢) الشهاب، ص ٣.

(١١٣) الأمالي، ج ١، ص ٥١٨؛ الشهاب، ص ٣ ـ ٣٤؛ طيف الخيال ١٤٦ ـ ١٤٩.

(١١٤) انظر: محمد بن الحسن الحاتمي: **حلية المحاضرة**، ص ٨٠ ـ ٩٩، نقلاً عن محمد مصطفى هدارة: **مشكلة السرقات الأدبية في النقد العربي**، ط ٢، بيروت: المكتب الإسلامي ١٣٩٥/١٩٧٥، ص ١٠٩؛ د. أحمد مطلوب: **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**، ج ٢، بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م، ص ٣٧٨.

(١١٥) - Josep.j. T.Shiply, **Dictiovary of World Literary Terms,** Boston, (1970)

p.52, See also Lindey, **Plagiarism and Originality,** New York Harper & Brothers, 1952 p. 25-ff.

(١١٦) الآمدي: **الموازنة**، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٧٣ / ١٩٥٤، ص ٤٧، ص ٥٠، من الطبعة الخامسة ١٩٨٧م.

(١١٧) أبو هلال العسكري: **كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر**، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧١ / ١٩٥٢، ص ٢٣٠.

(١١٨) إعجاز القرآن، ص ١٨٥.

(١١٩) الشهاب، ص ٧.

(١٢٠) الشهاب، ص ٣٠، انظر كذلك ص ٢٩.

(١٢١) الشهاب، ص ٣٠.

(١٢٢) القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني: **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، ط ٢، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٠ / ١٩٥١، ص ١٨٦.

(١٢٣) طيف الخيال، ص ٩٥.

(١٢٤) طيف الخيال، نفس الصفحة؛ وكذلك الشهاب، ص ٧.

(١٢٥) الشهاب ص ٣٠.

(١٢٦) الشهاب، ص ٧.

(١٢٧) انظر:

- Lindey, **Plagiraism and Originality,** p. 252. June Downey, «the unconscious», in Creative Imagination, New York, Harcourt, Brace and Compony Inc. 1929, pp. 55-6; Herbert Rread,«The sychology of art: the receptive aspect» in, **Art Now,** new york: Harcourt, Brace & Company, pp. 48-53.

(١٢٨)
- See Lindey **Plagiarism and Originality,** p. 185, 251, 8

(١٢٩) طيف الخيال، ص ٩٤ ـ ٩٥.

(١٣٠)
- William. A. Edwards, **Plagiarism,** Combridge: the minority press, 1933.

لمزيد من التفصيل والتحليل لعملية التأثر والأخذ غير الواعي و(الأبوة المجهولة للعمل الفني) انظر ما كتبه (هارولد بلوم Harold Bloom)

- **The Anxiety of Influence; A Theory of Poetry,** (New York: Oxford University Press, 1973), p. 77-92, 139-156.

(١٣١) طيف الخيال، ص ٩٤ ـ ٩٥.

(١٣٢)
- Lindey, **Plagiarism and Originalit,** p.252; **Broadway journal** Vol. I, p.212, April 5, 1845.

(١٣٣) طيف الخيال، ص ١٤٢.

(١٣٤) الموازنة، ص ١٣.

(١٣٥) ابن رشيق القيرواني: **قراضة الذهب في نقد أشعار العرب**، تحقيق: الشاذلي بويحيى، تونس: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ١٩٧٢، ص ٨٣ ـ ٨٤.

(١٣٦) قراضة الذهب، ص ٨٢.

(١٣٧) قراضة الذهب، ص ٨٣، انظر كذلك الصفحات ٨٠ ـ ٨١، ٥٤، ٨٥، يشير القيرواني إلى أسباب الاتفاق الذي قد يحصل بين الشعراء.

* * *